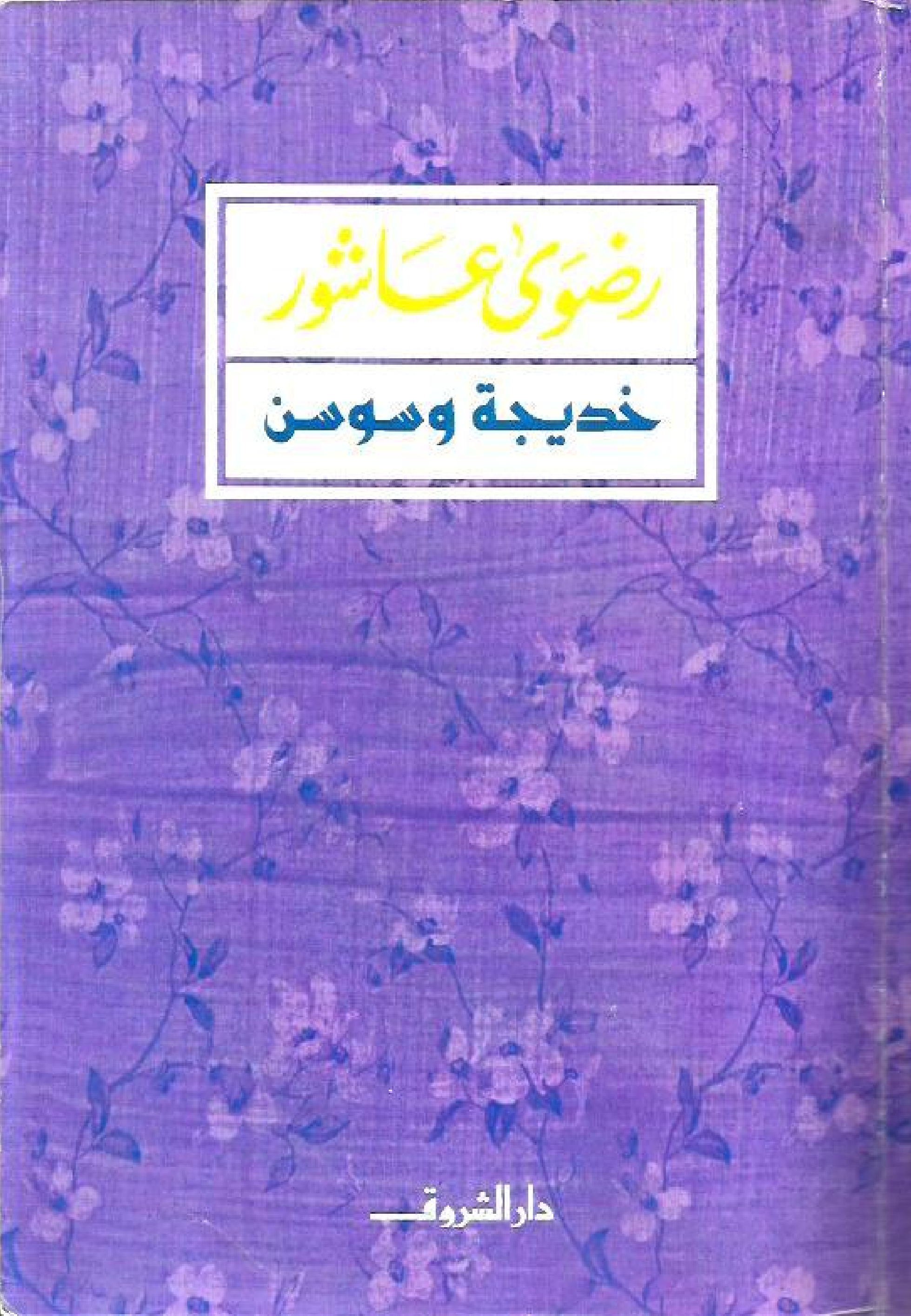

رضوى عاشور
خديجة وسوسن
دار الشروق

خديجة وسوسن

خديجــة وسوسن

رضوى عاشور

تصميم الغلاف: وليد طاهر

الطبعة الأولى ١٩٨٧

طبعـة دار الشروق الأولى ٢٠١٥

تصـنيف الكتاب: أدب / رواية

٨ شـارع سيبويـه المصـري
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
www.shorouk.com

رقـم الإيداع ٤٨٤١/ ٢٠١٥
ISBN 978-977-09-3343-5

رضوى عاشور

خديجة وسوسن

رواية

دار الشروق

الجزء الأول

خـــديجـــة

١

- سأقوم بدور الملك وإلا فلن ألعب.

قررت أن أوقعه في شر أعماله.

- أوافق.. أنت الملك شرط أن توزع الأدوار وتدير اللعبة.

كنت واثقة من فشله، ولكنه قال.

- إذن أنا الملك ومجدي الوزير وأنتِ الجارية.

وابتسم وهو ينظر إليّ بانتصار شرير. قلت:

- لن ألعب.

قال مجِدي:

- أحمد على حق وأنتِ التي تفسدين كل شيء.

- حتى أنت يا مجدي؟

أدرت لهما ظهري وانصرفت إلى حجرتي. أخرجت من درج المكتب كراسة الرسم والأقلام الملونة. أحمد غبي وبليد ولم يكن ترتيبه الأول في المدرسة طول حياته فكيف يكون قائدا للعبة؟

ومجدي مزعج ويعاندني بلا داع. والاثنان أصغر مني، فلماذا لا ينفذان ما أقوله؟

جلست إلى المكتب وفتحت الكراسة الكبيرة.. ماذا أرسم الآن؟ تركت النصف الأعلى من الصفحة ورسمت في نصفها الأسفل خطوطا زرقاء متموجة وأسماكا، صغيرة وكبيرة، برتقالية ورمادية، وسمكة القرش بأسنانها المخيفة. وفي القاع رسمت نجم البحر والأصداف والقواقع والمحارة المغلقة على اللؤلؤة الثمينة يجاورها الأخطبوط الشرير رصاصيا ومقرفا.

عدت للجزء الأبيض المتروك، رسمت الشمس في الجهة اليمنى: دائرة تحيط بها خطوط أشعتها، صفراء وبرتقالية، وفوق الموج رسمت القارب: هلال نائم يعلوه شراع مثلث. وفي القارب البنت: وجه وضفيرتان وثوب منقوش بالأزهار. ثم كتبت اسمي على الشراع فاكتملت الصورة. حملتها وركضت إلى الولدين.

نظر مجدي إلى الرسم منبهرا.. أما أحمد فلم يفوّت الفرصة:

- تعالي يا خديجة لتلعبي معنا.

لم أنتظر تكرار الدعوة، أعلنت:

- أنا الملكة ومجدي الوزير وأحمد السفير.

ثم قلت وأنا أوجه الكلام إلى أحمد:

- أرأيت؟ لقد عينتك سفيرا، فلماذا تتصور أنني ضدك؟ سوف تحمل يا سفير أحمد كل الرسائل المهمة إلى البلاد الأجنبية.

بدأت اللعبة: وقفت مرفوعة الرأس ومتصلبة كما يليق بملكة وأعلنت بصوت مجلجل:

- أنا خديجة ملكة مصر قررت بناء هرم أكبر من أهرام الجيزة الثلاثة. يا وزير مجدي أبلغ الأهالي بالخبر السعيد وأرسل في طلب المهندسين والبنائين والنقاشين والفنانين للبدء في العمل.

- سمعا وطاعة يا مولاتي.

- يا سفير أحمد، اذهب بهذه الرسائل إلى كل البلاد الصديقة وادع ملوكها وملكاتها، والأمراء والأميرات والنبلاء والفرسان، والعلماء المشهورين لحضور الحفل الكبير الذي تقيمه الملكة خديجة بعد شهر احتفالا بانتهاء البناء.

- سمعا وطاعة يا مولاتي.

- خذ هذا الخاتم دليلا على أنك سفير من عندي.

أخذ مني أحمد الخاتم الوهمي ووضعه في إصبعه واستدار ليبدأ مهمته.

- سيدوم احتفالنا أربعين يوما، أفراحا وليالي ملاحا في القصر وفي البلاد كلها.

مرت ثوان من الصمت قطعها تصفيق مجدي الذي أعلن.

- انتهى بناء الهرم الأكبر يا مولاتي، علقنا الزينات وأقمنا الأعياد.

بعدها صفق أحمد:

- عدت من رحلتي يا مولاتي. دعوت كل الملوك والنبلاء.

قلت وأنا أقفز باتجاه طاولة قديمة وأبدأ في الدق عليها:

- الآن نفتتح الحفل الكبير، دقوا الطبول وانفخوا في الأبواق!

شاركني مجدي في الدق على الطاولة في حين أخذ أحمد يقلد صوت النفير وهو يتمايل بجسده. عدت إلى مكاني لاستقبال المدعوين ووقفت مرفوعة الرأس أمسك طرف ثوبي بيدي اليسرى.. يعلن أحمد اسم كل وفد فأجيب بإيماءة ملكية وأمد يدي للسلام..

وفجأة قفز إلى جواري صائحا:

- الآن وقد اكتمل الضيوف، نرحب بكم جميعا وندعوكم لحمل الملكة خديجة في موكب كبير إلى الهرم.. لندفنها فيه!

يضحك كالمجنون.. لم أتصور أنه سيخرج عن الدور المرسوم ويتصرف بهذا الشكل الشرير. إنه ينتقم مني لأني لم أعطه دور الملك.

- أحمد، يكفي، هذه سخافة!

-الهرم مكان للدفن، كلنا نعرف هذا، أليس كذلك يا مجدي؟

رأيته يغمز بعينه لمجدي الذي أجاب:

- أحمد على حق!

- لا تفسدي اللعبة، لا بد أن تُدفني!

- لن أدفن!

* *

في العطلة الصيفية أقضي معظم الوقت مع أخي أحمد، ومجدي

ابن الجيران.. نلعب في حديقة البيت في ظل النخلتين العاليتين اللتين تطرحان بلحا سمانيا أصفر.. نركض حول الأحواض المزروعة بالنعناع والعطر والريحان.. نلعب «استغماية» و«عسكر وحرامية» و«أولى» وألعابا أخرى اخترعتها أنا.. نظل نلعب حتى يعود أبي من عمله فنصعد معه أنا وأحمد، لنتناول الغداء، أما مجدي فيعود إلى بيت جدته.

أبي يعمل صيدليا. في الصباح يشتغل في معامل وزارة الصحة، وفي المساء يذهب إلى الصيدلية التي يمتلكها بالقرب من ميدان الجيزة، وبإمكاني لو سمحوا لي أن أذهب وحدي. أمشي في خط مستقيم حتى شارع الروضة ثم أعبر كوبري عباس فأصل الصيدلية التي تعلوها لافتة ضخمة تضيئها في الليل مصابيح النيون، مكتوب عليها بخط بارز «صيدلية الشفاء لصاحبها الدكتور محمود عبد الكريم».عندما تقول أمي إنني مؤدبة يكافئني أبي باصطحابي معه إلى الصيدلية.

أحب أن أرى أبي في الرداء الأبيض يتحدث مع الزبائن ويقرأ «الروشتات» ويأتي بالدواء المطلوب من الأرفف الكثيرة التي تغطي الجدران.. وأحب أن أراقبه حين يدخل إلى الغرفة الداخلية ليصنع مزيجا. يمسك بزجاجة بنية ويضع فيها قمعا من البلاستيك الأخضر ثم يصب فيها محاليل مختلفة من زجاجات كبيرة بيضاء. وحين ينتهي من خلط المحاليل يرفع القمع ويغلق الزجاجة بسدادة من الفلين ويكتب على الملصق اسم الدواء وعدد مرات تناوله.. ثم يرج الزجاجة بقوة ويعطيها للزبون.

أحب الذهاب إلى الصيدلية لأن أبي يعطيني أوراقا مصقولة عليها صور ملونة ترسلها إليه شركات الدواء الأجنبية، وأيضا لأن هناك محلا كبيرا للعصير ملاصقا للصيدلية. آخذ من أبي نقودا وأدخل المحل لأشتري كوبا من عصير المانجو. أعطي البائع ثلاثة قروش فيأتي بزجاجة عصير ويصب منها في كوب زجاجي كبير. أرى قطع المانجو وهي تنزلق مع العصير في الكوب وأسمع صوت انزلاقها أيضا فيمتلئ فمي باللعاب!

ولكن ماما لا تقول إنني مؤدبة إلا نادرا! غالبا ما تقول إنني «معجونة بماء العفاريت».

- خديجة أنتِ لا تحبين إلا نفسك.أنتِ أنانية.

- وأنت غبي وحمار وكلب.

تدخل مجدي:

- أحمد على حق، لن نلعب معكِ أبدا وسنشكوكِ لأمك.

- أنا أيضا سأقول لها إنكما قفزتما أول أمس من فوق السور وذهبتما إلى شارع الروضة من دون إذنها.

احمر وجه أحمد من الغيظ ووضع ذراعه على كتف مجدي وأعطياني ظهريهما وسارا بعيدا، فتركتهما وذهبت.

فتحت دولاب ملابس أمي ودسست وجهي داخله أبحث عنها بعيني وأنفي أيضا إذ كانت لها رائحة مميزة. وجدتها، فحملتها بين

يدي، وجلست على السجادة بين السرير والحائط تحت النافذة العريضة التي تضيء الحجرة.

إنها حقيبة يد كبيرة نسبيّا تذكرني في كل مرة بحقيبة الست حنيفة الحكيمة التي تدخن وتتحدث في السياسة كالرجال. الحقيبتان متشابهتان في الشكل، لهما نفس الجلد البني القديم. ولكن حقيبة الست حنيفة ـ التي تقول عنها ماما إنها ساعدتها في الولادة ـ تفوح منها رائحة الدواء. عندما كنت صغيرة كنت أفزع من مجرد رؤية هذه الحقيبة، لأني أعرف أن بداخلها الإبرة الزجاجية والمحقن المعدني والسن الرفيع الحاد (تخرجها الست حنيفة من حقيبتها وتضعها في آنية نحاسية تملؤها بالماء وتتركه على النار ليغلي.. بعدها تركب الإبرة وتسحب بها المصل ثم...).. كنت صغيرة وبلهاء. الآن كبرت وأصبح عندي عشر سنوات. أراقب أبي وهو يربط ذراع أحد الزبائن بحبل مطاطي ويرشق سن الإبرة الرفيع، ولا أهتم.

ولكن رائحة هذه الحقيبة تختلف. أفتحها وأقلبها فتنهمر الصور: صور كثيرة مختلفة الحجم واللون، بعضها بياضه أصفر وأسوده بني،وبعضها الآخر أبيض وأسود، وبعضها ورقه سميك والآخر لامع ومصقول أحب أن أمر عليه براحة يدي. بطاقات بريدية ملونة مكتوب على ظهرها بخطوط منمنمة لا أستطيع قراءتها. أفسح لنفسي مكانا بين الصور، أنام على بطني وأستند على مرفقي وأبدأ في التأمل.

صورة جدي لأبي الذي مات قبل أن أولد. كان مزارعا يملك أرضا يمر عليها كل يوم راكبا حصانه يباشر الفلاحين الذين يزرعون، هذا ما يقوله أبي. جدي في الصورة يرتدي جبة وقفطانا وعمامة وله

شارب كث طرفاه مفتولان لأعلى. أضحك وأنا أتأمل أبي وأعمامي. أطفال يلبسون الطرابيش ـ أبي أصغرهم وأنحفهم ـ أعمامي الخمسة كلهم في الصورة، أما عمتاي فغائبتان منها «لماذا يا بابا؟» «لأن جدك لم يسمح للبنات بالذهاب إلى المصور ولا للمصور بالدخول عليهن في البيت». جدي لأبي لم يكن يسمح. ولكن أخاه، جدي لأمي، قد أرسل بابنته إلى المدرسة.. وهذه صورة أمي وسط الأزهار لها ضفيرتان وعينان واسعتان وفم كبير مفتوح على آخره، تضحك رغم أنها الآن لا تفعل ذلك إلا نادرا، وتعنفني يوميا وتقول إن الضحك بصوت عالٍ لا يناسب البنات.

عمتي فهيمة في هذه الصورة التي التقطها لها أبي عندما جاءت إلى القاهرة للعلاج تبدو متجهمة مسكينة! «لأنها ماتت يا بابا؟ لأنها ماتت قبل أن تتزوج؟». يكرر أبي كلما رأى الصورة: «كانت عمتك جميلة وطيبة وتحسن الطهو ولكنها مسكينة بلا حظ ماتت قبل أن تتزوج». عمتي فهيمة هي المسكينة، أما عمتي كريمة فهي المحظوظة لأنها تزوجت، وزوجها رجل طويل جدًا وعجوز و«مناخيره قد الكوز»! أضحك لانطباق المثل عليه، وهو دائما مكفهر الوجه، يزجر عمتي ويخلق لها المشكلات ولا يبتسم إلا لو جاءه ضيوف أو نجح أحد أبنائه الثمانية.

«بابا في المعمل».. لمحت طرفا لصورته المفضلة عندي فسحبتها من تحت كومة من الصور. أبي وهو طالب في كلية الصيدلة بالجامعة يقف في المعمل بين الأنابيب الزجاجية غريبة الشكل، يضحك وهو يرتدي البالطو الأبيض.

فوجئت بضحكته الأليفة تقطع صمت الحجرة، رفعت عيني

فرأيته.. نظرت حولي فوجدت الصور المتناثرة تغطي السجادة.. رحت أعيدها بسرعة إلى الحقيبة. يهوِّن من أسفي عودة أبي من عمله وحلول ساعة الغداء.

- بابا، هل يمكن أن آخذ هذه الصورة؟

رفعت صورته في المعمل ليراها. عندما وافق جمعت الصور المتناثرة وأعدتها إلى الحقيبة التي ألقيت بها على عجل في قاع الدولاب واندفعت راكضة إلى غرفتي، ولكن أبي ناداني لكي أغلق باب الدولاب الذي تركته مفتوحا على مصراعيه.. فعلت ثم ذهبت إلى حجرتي وثبت الصورة في الإطار الخشبي لمرآة التسريحة.

بابا وسيم في الصورة، وفي الحقيقة هو يعرف أشياء كثيرة كلها مدهشة. وهو ظريف يعرف كيف يجعلني أضحك حتى عندما أكون غاضبة أو أبكي.

عندما كنت صغيرة كنت أريد أن أكون مثل أبي في كل شيء وأن أصبح صيدلية مثله. كنت أجمع العلب الفارغة وصناديق الكرتون الصغيرة وأصفها على المائدة المعدنية المركونة تحت تكعيبة العنب وأبيع الدواء لأحمد ومجدي.. ثم غيرت رأيي وأعلنت على مائدة الغداء: «عندما أكبر سأصبح بطلة رياضية». أنا أمهر تلميذة في المدرسة، أستطيع تنفيذ أي تمرين تطلبه المدرِّسة، وهي تقول لزميلاتي: «انظرن كيف تؤدي خديجة التمرين»، فينظرن. في مسابقات الركض أسبق الجميع، وعندما أراهن أحمد ومجدي على أي منا يستطيع الوقوف على رأسه مدة أطول أكسب ويخسران. وبمقدوري أن أمشي على يدي، أما هما فلا يقدران.

كنت أريد أن أصبح بطلة رياضية.. كان ذلك العام الماضي. الآن لا أريد. سأدرس الجغرافيا وأطوف العالم كسندباد.. هذا هو قراري الأخير. قلت ذلك لأبي وأمي وأحمد ومجدي وزميلاتي في المدرسة ولأبلة فاطمة مدرسة الجغرافيا التي قالت: «الخريطة التي رسمتها خديجة هي أفضل خريطة.. صفِّقن لها» فصفقت لي البنات وأخذت الكراسة فوجدت ١٠/ ١٠ ونجمة ذهبية جميلة ملصقة بجوار كلمة «ممتاز».

عندما أكبر سأطوف العالم، سأرسم خرائط وصورا للمناطق التي أزورها، وسأكتب عن الأشياء الغريبة التي أراها وأحتفظ بكل شيء في صندوق خشبي ضخم شبيه بصندوق عمتي كريمة، التي تقول إنها ورثته عن جدتي، صندوق يشبهه في الشكل والحجم ولكنه أحلى لأنه مرسوم وملون.

أفكر في صورة أبي المثبتة في إطار المرآة المواجهة لسريري وأغمض عيني وأحكم الغطاء حول جسمي فأرى نفسي على ظهر سفينة كبيرة بها بحارة كثيرون وصناديق ضخمة بعضها من الخشب المحفور وبعضها مطعم بالذهب والفضة وصندوقي المزين بالرسوم الملونة والزخارف الجميلة. أروح وأغدو، أتحدث وأضحك.. تشق السفينة البحر الأزرق الواسع، ثم فجأة تبرق السماء وترعد وينهمر المطر ويعلو الموج كالجبال فتتأرجح السفينة وسط الظلام يقطعه هدير البحر الهائج وصيحات الاستغاثة.. أشهق في رعب ثم أبتسم وأنا أخطو في جزيرة بديعة كلها أزهار برية وأشجار عالية تتدلى منها ثمار المانجو الشهية. أتوغل في الجزيرة التي بلا أصوات، أرى المشاهد الملونة وأستنشق الروائح الزكية ولا أسمع سوى حفيف

الأغصان ووقع قدمي على الأرض.. أجفل فزَعا وقد هبط الليل على النهار فجأة فأظلمت الدنيا كان طائر الرخ قد نزل الجزيرة فاردًا جناحيه الهائلين، ثم طار وأنا أمسك بطرف مخلبه. رأيت الجزيرة كقرش صغير في المحيط، وضحكت وأنا خائفة. راح الخوف وبقيت أضحك وأنا في مدينة عجيبة يتحدث أهلها بالمعكوس جملتهم تبدأ من آخرها.. أتصبب عرقا وأنا أصعد جبلا شاهقا مغطى بالثلوج وأبلل شفتي بلعابي، أكاد أموت عطشا في الصحراء التي تمتد بامتداد البصر أرتعد خوفا وأنا في الغابة وتكاد ساقاي لا تحملانني ثم أبتسم، أضحك وأنا أحيي المستقبلين الذين جاءوا إلى الشاطئ لتحيتي.

أعود إلى البيت. أجلس إلى مكتبي أكتب كل شيء وأرسم كل شيء وأودع الأوراق الصندوق الذي يحمل اسمي، أغلقه وأحكم إغلاقه بالقفل والمفاتيح.. وعندما يأتي الناس لرؤيتي أحكي طويلا وأفتح الصندوق وأطلعهم على الصور والنفائس فينبهرون ويقولون: «خديجة أكبر عالمة جغرافيا في العالم!»، ويكون كلامهم صحيحا لأنني سأعرف كل ركن وكل زاوية من هذه الدنيا تماما كما أعرف البيت الذي أسكن فيه. ويكون كل شيء مسجلا بالرسم والكتابة في الأوراق المحفوظة في الصندوق المغلق بقفل لا يحمل مفاتيحه إلا أنا.

*

افتتحت ورشة نجارة صغيرة في الشارع الجانبي الذي أطل عليه من نافذة غرفتي. تابعت النجار وصبيه وهما يقطعان ألواح الخشب بالمنشار وينعمانها بالفارة ويعدان الغراء على النار ويدقان ألواح المسامير بعد أيام من المراقبة نزلت إلى المحل وعرضت

أن أشاركهما العمل! ضاقت عينا النجار الصغيرتان حتى أصبحتا شرطتين في الثلث الأعلى من وجهه المستطيل وضحك.. ضحك بصوتٍ أجش عالٍ أخافني وجعلني أتساءل إن كان الرجل طيبا أم شريرا.

- يا بنتي لا يمكن أن تكوني صبية في المحل، لأنه ـ لا مؤاخذة ـ النجارة ليست شغلة نسوان. أعرف أنتِ تريدينها هواية لكن بالنسبة لي والواد محمد (أشار لصبي تلمع عيناه في العتمة النسبية للمحل كعيني قط عسليتين) النجارة هي رزقنا وأكل عيشنا.

وعاد النجار للاهتمام بلوح الخشب الذي كان ينشره، وهو يواصل الضحك، رجعت إلى البيت وأنا أجر قدمي، أشعر بالخيبة، ولا أفهم لماذا ضحك مني النجار، ربما لم يقصد سوءا حين ضحك، ربما حين يتعرف عليّ ويعرفني ويعرف أنني ذكية وسريعة التعلم يرضى عني ويحبني. وهذا الولد محمد لم يكف عن مراقبتي وأنا أتحدث مع النجار. كان يلبس حذاءً من المطاط وفانلة صفراء قديمة وبنطلونا رماديا مهترئا، فلماذا يقبله النجار صبيا ولا يقبلني؟ قال إنها ليست شغلة نسوان، فلماذا لا تكون كذلك؟

أقضي الساعات في مراقبة النجار من النافذة، أرفض أن ألعب مع أحمد ومجدي، ولا يشغلني إلا إقناع النجار بالعمل معه. أحكي لأبي فتقول أمي إنني فقدت عقلي، ولكني ألح. كل يوم أتحدث مع أبي في الموضوع وأطلب منه أن يقنع النجار، حتى كان ذلك اليوم الذي قال أبي لأمي إنه تحدث مع عم عبد الله النجار فوجده رجلا عاقلا وطيبا وأنه لا داعي للقلق.. ولم أنتظر لأسمع باقي الكلام بل

ركضت إلى الشارع ولم أتوقف إلا أمام باب النجار الذي نظر إليَّ بدهشة كأنه لم يعد يذكرني. وعندما ذكرته بنفسي ابتسم وطلب مني أن أجلس على كرسي وألاحظ ما يقوم به هو «والواد محمد لأنه أسطى وشاطر». أغاظتني الملحوظة ولكني قلت لنفسي إن الصبر طيب، وقبلت بالجلوس على الكرسي والمراقبة ولو مؤقتا حتى يقتنع عم عبد الله بأنني أصلح. وهذا الولد محمد لا يبادلني أي كلام كأني غير موجودة! إنه ولد مغرور والغرور عيب خطير، وهذا ما أكدته مدرسة الحساب في المدرسة.

بعد أسبوع من الجلوس على الكرسي سمح لي عم عبد الله بمساعدته: أقلب الغراء، أمسك لوحا من الخشب، أدق مسمارا. تعلمت منه أشياء عديدة علَّمت بعضها لأحمد ومجدي، وفي البيت استطعت إصلاح مقعدٍ كسرت إحدى قوائمه حتى أن أمي شهدت لي بالمهارة.

محمد لم يعد يتجاهلني، وعندما أستفهم منه عن شيء يفهمه لي.. إنه ليس مغرورا، إنه لطيف وذكي، لكنه لا يعرف القراءة والكتابة. عرضت عليه أن أعلمه، فقال: «إن شاء الله»! ولم أفهم إن كانت إجابته تعني الرفض أو القبول، كررت عرضي فقال على استحياء:

- كيف؟ ومتى؟

- هنا في المحل، كل يوم أعلمك ساعة.

- مستحيل لأن الأسطى عبد الله سيقول إننا نضيع الوقت، وإنه لا يدفع لي أجري لكي أجلس وأقرأ في الكتب.

- إذن كل يوم جمعة، تأتي لزيارتنا نتغدى معا وأعطيك درسين، درسا قبل الغداء ودرسا بعده، ما رأيك؟

- صعب.

- لماذا؟

تلعثم وكأنه غير موافق، ولكني أقنعته فوافق.

فاجأني غضب أمي حين أخبرتها بدعوتي لمحمد. قالت إنني بلا عقل ولا أعمل حسابا لشيء. أمي تتصرف بشكل غريب لا يمكن فهمه، وهي تلقي بالأوامر والنواهي بلا منطق. جلست أنتظر أبي لكي نتفاهم كما يليق بالعقلاء والأذكياء.. فاجأني أبي بتصرف أغرب من تصرف أمي! رفض رفضا قاطعا، ثم أضاف:

- لو سمعت أنكِ نزلتِ عند النجار سأكسر رجلك. مفهوم؟

تركني من دون أدنى احتمال في استكمال النقاش. أبي وأمي يفرضان رأيهما بلا وجه حق، وبدون منطق، فلماذا؟ دخلت الحمام، وجلست على حافة البانيو. بابا ليس غبيا أنا متأكدة، فهل هو إذن ظالم ومستبد؟ وما الذي سيقوله محمد؟ سيقول خديجة كذابة وكلامها كلام عيال. ما العمل إذن؟ لا أعرف ما العمل، فأبكي قهرا.

بعد يومين خرجت إلى الشارع وانحرفت مع سور الحديقة يمينا إلى الشارع الجانبي. ذهبت أولا إلى البقال واشتريت بكل ما معي من نقود لوحا من الشيكولاتة، ثم اتجهت إلى محل عم عبد الله.

- أشكرك يا عم عبد الله على الأشياء المفيدة التي علَّمتها

لي. للأسف لن أستطيع العمل معك لأن أبي يريد أن أساعده في بعض الأشغال.

سلمت على عم عبد الله ولم أنظر إلى محمد الذي كنت أشعر بأن عينيه تتطلعان إليّ. وضعت لوح الشيكولاتة أمامه. وركضت عائدة إلى البيت.

٢

قالت جدتي: «البنات كشجر الموز». فهزت أمي رأسها موافقة. ولم أفهم ما معنى كلام جدتي ولا سبب موافقة أمي على ما قالته. كانت جدتي لأمي امرأة صغيرة الحجم كئيبة الوجه، لها عينان ضيقتان وجبهة ضيقة ووجه مجعد. وكانت تتحدث همسا وبصوت مبحوح فتذكرني بالسحالي. ولم أكن أطيقها ولا أطيق تعليقات أمي المستمرة: «ماذا تقول جدتك لو رأتك بهذا الشكل؟»، «ماذا تفعل جدتك لو سمعت بهذا الموضوع؟».. تعليقات لا تنتهي تجعل جدتي حاضرة بيننا في كل وقت، رغم أنها لم تكن تأتي من البلد لزيارتنا إلا مرة واحدة في السنة لا تكلُّ فيها من الترحم على أيام زمان.

تزجرني أمي باستمرار، وتكرر: «الولد أرحم»! ولا أعرف لماذا تقول ذلك فأنا أكثر تفوقا من أحمد، أحصل على الدرجات النهائية في معظم المواد وأضمن حصول مدرستي على كأس المنطقة في كرة اليد، وأنوي أن أصبح طبيبة وأعرف أنني سأتمكن من ذلك. ولكن أمي تقول: «الولد أرحم»! وتنحاز لأحمد بلا وجه حق. تقول: «إنه أخوك ويريد حمايتك»! فهل أنا كسيحة أو عمياء لكي يحميني؟ أنا أكبر منه وأفضل منه. قالت لي إحدى زميلاتي في المدرسة: «هكذا

الأمهات يفضلن الأولاد وينحزن لهم، ويتعاملن معنا بقسوة غير مفهومة». فهل هذا صحيح؟ يبدو صحيحا، فلماذا؟

ليست الأمور بيني وبين أمي على ما يرام. شيء ما يعقدها ويعرقل سلاستها. قلت لأمي وأنا أضحك: «التروس مزرجنة وهي بحاجة إلى تزييت»! فغضبت وتصورت أنني أهينها، وأنا أحبها فكيف أهينها؟ هي التي تهينني باستمرار وتكرر أن الولد أرحم!

- ماما قولي لأحمد أن يتركني وشأني.

- يا ماما كانت تطل من النافذة، والولد الذي سكن أخيرا في عمارة الجيران لا يرفع عينيه عنها. نبهني مجدي أن الولد وقح ولا هم له سوى مشاغلة البنات. قلت يا خديجة ادخلي رفضت فجذبتها من ضفيرتها وأغلقت النافذة، هل أخطأت؟

صرختُ فيه:

- طبعا أخطأت.

وانسحبت إلى غرفتي وطرقت الباب عامدة.

تشكوني أمي لأبي. تقول إن جدران البيت كانت ستنهار من عنف طرقة الباب. يقول أبي:

- غدا تكبر وتعقل.

وتقول أمي:

- لن تهدأ وتعقل إلا عندما نزوجها.

أمي منحازة إلى أحمد. كلام زميلتي صحيح!

*

قالت لي أمي وهي تضحك:

- مبروك يا خديجة، جاءك عريس!

نظرت إليها مستفهمة، قالت:

- شاب ممتاز والده من الأعيان يملك أطيانا في المنيا. وأمه رحمها الله ابنة عمة زوج زكية ابنة خالتي. يعني ناس من ثوبنا نعرف أصلهم وفصلهم. والشاب عنده ٣٠ سنة وجراح ودرس في أوروبا وشكله مثل القمر، بصي!

وأبرزت لي أمي صورة لشاب له وجه مستدير وشعر أملس وشارب صغير معتنى به. كان وسيما. قلت وأنا أعيد لها الصورة:

- لا أريد الزواج!

- هذا هو البطر بعينه. لقد جاءنا السعد حتى بابنا فهل نتبغدد ثم نعود فنندم؟

- ولكني أريد أن أدخل كلية الطب، وأنت تعرفين.

ضحكت أمي وربتت على كتفي:

- نحن لا نناقش دخول الجامعة، نحن نتحدث عن العريس.

- وماذا قال أبي؟

- قال إن الشاب لقطة.

- ماذا قال عن دراستي؟

- لم يقل شيئا.

*

قالت أمي تستعجلني:

- تأخرنا.

- خمس دقائق وننتهي.

وقفت تراقبنا ونحن نلعب في الحديقة. وحدي كنت أكوِّن فريقا في مواجهة أحمد ومجدي وكنا نلعب كرة قدم. ضحكت أمي وهي تتابع كيف أراوغهما وأركض بالكرة حتى أصل المرمى. صوبت وانتهت المباراة.

قلت لأحمد وأنا أطلع له لساني:

- عندك حارس مرمى وأنا وحدي ومع ذلك غلبتك ٢/ صفر! تعيش وتاخد غيرها..هيا بنا يا ماما.

اقترحت أمي أن أغير ملابسي، ولكني قلت إن ملابسي نظيفة. «بدلي الحذاء على الأقل». ولكني كررت أنه لا داعي، ونزلت بصحبتها أنتعل حذاء المطاط ذا الرباط، وكنا نقصد حلاق السيدات.

دفعت أمي الباب الزجاجي ودخلنا، فلفحت وجهي الحرارة رغم المراوح الكهربائية الكبيرة المثبتة في السقف والتي رأيتها وسمعت أزيزها. كانت المرة الأولى التي تصحبني فيها أمي. جلت بعيني في المكان الذي كان صاخبا ومكتظا بالنساء: نساء أسلمن

رءوسهن لرجال يقصون الشعر، يلفونه على لفافات أسطوانية صغيرة، يفردونه بالمكاوي الساخنة، يصففونه.. نساء مددن أيديهن إلى فتيات تشذبن لهن أظافر اليدين ويطلينها بطلاء أحمر ناري.. نساء غمسن أقدامهن العارية في أطباق بلاستيك صغيرة مملوءة بالماء. العاملات والعاملون منهمكون في الشعر والأيدي والأقدام، والنساء يتأملن أنفسهن في المرايا: المرايا الطويلة التي ترى فيها المرأة نفسها كاملة وبالحجم الطبيعي، والمرايا النصفية التي تجلس الواحدة أمامها فتبصر نصفها الأعلى، والمرايا متوسطة الحجم في الأطر الخشبية يمسك بها المصفف في مواجهة مرآة أخرى فترى الجالسة شكل رأسها من الخلف، والمرايا الصغيرة بحجم الكف لتأمل تفاصيل الوجه وتسوية الحاجبين.

- تفضلي.

أوضحت لي أمي أن الشاب سيغسل لي شعري.

- أحل الضفائر؟

- هو سيحلها.

حل لي الشاب ضفيرتي وقادني إلى مقعد جلدي وثير وراءه حوض معدني. أحاط كتفي بمنشفة ثم أمال رأسي للخلف. أسلمت له نفسي. غسل شعري بالماء الساخن وصابون سائل أعجبتني رائحته. عندما انتهى أتى بمنشفة أخرى ولف بها شعري المبلل، قال الشاب مشيرا إلى مقعد آخر: «تفضلي».

جلست أمام مرآة نصفية كبيرة. جاء شاب آخر وسحب المنشفة من على رأسي، فسقط شعري الطويل على كتفي كثيفا ومبللا.

أستغرب شكلي لأني عندما أغسل شعري أخرج من الحمام مباشرة إلى أمي وأجلس عند قدميها فتقوم هي بتصفيفه وتضفيره. الآن كنت أطالع وجهي في المرآة ومن خلفه شاب متأنق يحيط معصمه بسلسلة فضية، له لحية وشارب جعلاه يبدو كرسام إيطالي.

- قص!

قالت أمي للشاب. سمعت صوتها دون أن أراها.

أمسك الشاب بالمقص وأداره في شعري. يختفي النصل اللامع ثم يظهر فتتساقط الخصلات السوداء على الأرض. أراقب كل شيء في المرآة. يمسك الشاب بالمشط يفصل خصلة يمسك بها بيده اليسرى بين الخنصر والوسطى، وبيده اليمنى التي تمسك بالمقص يقص الخصلات هكذا خصلة من بعد خصلة حتى أصبح شعري يغطي أذني بالكاد، والخصلات المقصوصة تفرش الأرض تحت قدمي. جاء ولد بمكنسة لها يد طويلة وأخذ يكنسها.

لف الشاب خصلات شعري على لفافات صغيرة، ثم أتى بمنديل من الشبك وقطعتي قطن. وضع على كل أذن قطعة ثم ربط الرأس المتضخم باللفافات بالمنديل. كان منظري الآن غريبا يبعث على الضحك، ولكني لم أضحك.

انتقلت إلى مقعد آخر تعلوه مجففة للشعر. دسست رأسي داخلها وأدار الشاب المفتاح فاندفع الهواء الساخن. عندما جف شعري انتقلت إلى المقعد الأول. فك لي الشاب شعري ثم أشعل موقدا غازيا رفيعا، ووضع عليه مكواة الشعر حتى حمي حديدها فأمسكها وراح يحركها حركة دائرية في الهواء، فماذا لو طارت هذه المكواة في وجهي الآن؟

أمسك بخصلة شعر وقبض عليها بين القضيبين المحميين فتحول قلقي إلى انزعاج وضيق. درت برأسي أبحث عن أمي فطلب مني الشاب أن أثبت في مكاني لكي يتمكن من أداء عمله. ستحرق هذه المكواة شعري! ولا أدري أين ذهبت أمي لأقول لها ذلك.

- هل هذه المكواة ضرورية؟

- شعرك خشن وكثيف، ستجعله المكواة ناعما كالحرير

- ولكنها ستحرق شعري.

ضحك الشاب وهو يعيد المكواة إلى الموقد لتزداد سخونة.

عندما انتهى من تصفيف شعري قمت لأعود مع أمي إلى البيت. ألقيت على نفسي نظرة في المرآة الكبيرة. أحمد ومجدي لن يتعرفا عليّ! قبل ساعتين تركتهما وشعري مفروق ومجدول في ضفيرتين غليظتين، والآن أعود إليهما وشعري ينسدل مالسا يغطي أذني بالكاد وخصلة أمامية تنزل على وجنتي اليمنى وتغطي ـ لو ملت برأسي قليلا ـ نصف وجهي الأيمن، تماما كالممثلات! ابتسمت للفكرة.

قالت أمي ترد على ابتسامتي:

- لو سمعت كلامي وغيرت ملابسك لبدوت عروسا حقيقية! ولكن بهذا الحذاء الكاوتش...!

في البيت تجملت وتعطرت وارتديت ثوبا من الحرير الوردي وحذاء جديدا أبيض له كعب مدبب. وألبستني أمي عقدا من اللؤلؤ وقرطا صغيرا من الماس، وزينت وجهي بالمساحيق. وكان أحمد ومجدي يقفان خارج الحجرة ينتظران أن يسمح لهما بالدخول، ولما

دخلا كدت أنفجر ضاحكة! فقد وقفا متلاصقين يحدقان فيّ مستديري العيون، فاغري الفم، معقودي اللسان.. وعندما دخل أبي الحجرة ضحك بصوت عالٍ فضحكا معه.. قلت: «بابا يضحك عليكما فلماذا تضحكان؟». ولكنهما واصلا الضحك حتى استلقى أحمد على ظهره واستند مجدي إلى الباب لكي لا يسقط من شدة الضحك. فبدأت أنا أيضا أضحك، وقالت أمي: «الله يجازي شيطانكم يا أولاد» ثم وهي تغالب الضحك: «اللهم اجعله خيرا».

كنت أضحك مع أحمد ومجدي ولكني كنت متوجسة. الشاب وسيم ويبدو ذكيا ولكنه عريس. سيأتي ويجلس مرتبكا وأجلس أنا أمامه مرتبكة ويمر الوقت ثقيلا تقطعه أمي بكلام لا معنى له مداراة للحرج.. هذا هو ما يحدث دائما في الأفلام.

لم يحدث. لم يكن العريس مرتبكا ولا محرجا. بل كان يتحدث بطلاقة وألفة ويتصرف بشكل طبيعي كأننا نعرفه ويعرفنا. ظلمته الصورة لأنه كان أحلى. شعره كستنائي فاتح أشقر تقريبا، وناعم كالحرير، وعيناه خضراوان تحيط بهما رموش طويلة ويعلوهما حاجبان كثيفان يلتقيان فوق أنف مستقيم، وبشفتيه امتلاء طفيف وله شارب أشقر صغير معتنى به.. كان وسيما كنجم سينمائي وأنيقا كنجم سينمائي أيضا، يلبس بدلة من الكتان الأبيض وحذاء أبيض وربطة عنق من الحرير الكحلي، وكان في بنصره الأيسر خاتم ذهبي ينتهي من أعلى بمسطح بيضاوي عليه نقش لم أتمكن من التقاطه.

وكان كمال قد أتى مع أبيه: رجل فارع الطول يميل إلى السمنة، يميزه شعر وشارب فضيان. قال:

- عندما نجح كمال في البكالوريا قلت لنفسي: «يا صفوت تعليم ابنك خير استثمار».. وأرسلته إلى إنجلترا ليدرس الطب هناك، وعندما تخرج وقال أعود قلت له ابْق حتى تتخصص وتصير جراحا ماهرا وقديرا. تسع سنوات.. (قال والد العريس موجها كلامه إلى أمي): تسع سنوات وكمال يدرس في إنجلترا، لم يخيب ظني أبدا، سافر ناجحا وعاد ناجحا.. عندها قلت له يا كمال حان وقت تزويجك وإلا

قاطعه كمال ضاحكا:

- وإلا فاتك القطار ولم تجد من ترضى بك.

سأله أحمد:

- إنجلترا جميلة يا دكتور كمال؟

- طبعا جميلة.. حضارة وتقدم وحرية.. ولكني أحب باريس أكثر من لندن.

سأله أحمد:

- وهل زرت باريس أيضا؟

- زرت لندن وباريس وروما وفيينا ومدنا أخرى كثيرة.

كانت أمي تصب الشاي وأنا أساعدها في تقديمه وكمال يواصل:

- لندن كامرأة كئيبة تجثم على النفس بغيومها وأمطارها. أما باريس فبهيجة كخديجة هذا المساء.

شعرت بالدم يصعد إلى وجنتي.. وضحك والد كمال وأبي وأمي، فزاد ارتباكي وتشاغلت بوضع الحلوى في الصحون.

- روما ترتبط في النفس بالدفء والحرارة. عندما أصلها أشعر بأنني على أعتاب مصر. أشتري شقة البطيخ من بائع متجول، أثرثر مع جاري في الأتوبيس.

سألته:

- ولماذا لا تكتب عن رحلاتك في كتاب؟

- لأني جراح ولا أتقن عملا آخر. (ثم أضاف وهو يضحك ويمد يديه) ألا ترين أن أصابعي أصابع جراح؟

لم أر في أصابعه شيئا استثنائيا، وكدت أسأله ما الذي يميز أصابع الجراح، ولكن غلبني الحياء.

قالت عمتي كريمة التي جاءت من البلد خصيصا لتبارك بالخطبة إنه عريس السعد. وذكرتني بحكاية الشاطر حسن الذي يحمل عروسه على حصانه الأبيض. ولكني تذكرت البجعة في الحكايات الأجنبية التي تحلق فوق المدينة تحمل في منديلها طفلا وليدا.. سيحملني كمال في منديله ويطير فأرى مثله أشياء كثيرة، وأرى بلادا بعيدة، وأصير مثله أتحدث بطلاقة وثقة وسط إعجاب الآخرين وانسحارهم.

يأخذني كمال إلى النادي ويعلمني «التنس». تطير الكرة بيننا ونطير لنلحق بها، يمينا ويسارا، للأمام وللخلف. تأتي جدتي لأمي لزيارتنا وتعترض لأنها لم تسمع من قبل عن عروسين يلعبان الكرة، وتعترض على ملابس التنس التي اشتراها لي كمال: جونلة قصيرة بيضاء وبلوزة قطنية بلا أكمام. تقول إنه ملبس غير محتشم ولا يصح.

فتجيبها أمي: «إنه خطيبها وسيعقد عليها الشهر القادم فتصبح زوجته يفعل بها ما يشاء». تمتعض جدتي. ونحن نركض، نطير حتى تنقطع أنفاسنا فنجلس لنشرب عصير الليمون.. ويمسك كمال بيدي يقبلها فتعلو أنفاسي وتهبط، ولا أدري هل هو الركض أم هي قبلة كمال أشعر بها حارقة على أناملي.

نركض.. نطير، والأيام أيضا. أتزين وألبس ثوب الزفاف الأبيض ويرتدي كمال بدلة العريس السوداء ويتعطر نسير بين صفين من البنات يحملن الشموع المضاءة.تتمايل أمامنا الراقصة على دقات الدفوف ورنات الزغاريد، وتنثر أمي وعمتي بدرة الملح المخلوط برقائق ذهبية وعملات فضية، ويلتقط المصور الصور.

نركض، نغير.. تحملنا الطائرة إلى مدينة جنيف.. تتهادى بنا المركب في البحيرة الهادئة.. يطوي بنا القطار التلال الخضراء.. يأخذنا من المدينة ثم يردنا إلى ضفاف «ليمان» والعشب المشذب وأسراب النوارس. نضحك ونلعب ونمارس الحب والسياحة. يشتري لي كمال طائرة من ورق، كبيرة وحمراء ومهذبة بورق ملون. أطلق لها الخيط وأتابعها وهي تعلو في السماء الصافية، ينتهي الخيط، أتشبث به ولكن الهواء يجذب الطائرة فأركض وأضحك، تفلت الطائرة من يدي فأتابعها وهي ترتفع في السماء وتبتعد.

نتناول العشاء في مطعم صغير على ضوء الشموع، ثم نرقص على عزف ناعم ينبعث من بيانو. أترك كمال يحركني كما يشتهي. أضحك. أقول:

- أستطيع أن أقف على رأسي.

- تزوجت طفلة وكان ما كان.

فأشب على أطراف أصابعي وأقبله في فمه قبلة طويلة، هكذا في المكان العام. يضحك:

- تزوجت امرأة ـ طفلة.

نطير إلى بيتنا في القاهرة، شقة جديدة واسعة تطل على ميدان مصطفى كامل بقلب المدينة. يلتقط لي كمال الصور. في الصالون في كامل زينتي، في السرير بملابس النوم، أمام المرآة وأنا أصفف شعري، في المطبخ وأنا أصنع له القهوة، في الحمام وأنا عارية! أصرخ: يا مجنون! فيفتح آلة التصوير قاصدا إتلاف الفيلم «رأيت كل الصور الرائعة، وهذا يكفي».

تنتفخ بطني ويمتلئ ثدياي وتتورم ساقاي وتثقل حركتي.

- الأسبوع القادم نحتفل بعيد ميلادك السابع عشر.

- بهذا الشكل؟

- أنت رائعة.. بهذا الشكل!

أتأمل نفسي في المرآة، ما الذي يجعل كمال يقول إنني رائعة بهذا الشكل؟ أبتسم وأنا أفكر أن الحب أعمى!

أمي تشتغل السترات الصوفية وأنا أنتقي ملابس المولود والمهد المبطن بالحرير.. «بنت!» سماها كمال زينب. بعدها بسنتين جاءت البنت الثانية سميتها أنا سوسن. قال كمال: «الحمد لله.. يكفي»، ولكن كنت أريد الولد.. وجاء سعد بعد ذلك بأربع سنوات.

هل كنت أركض، أم كانت السنوات هي التي تطير؟ الخطبة وشهر العسل وشهور الزواج الأولى والسنوات التي تلت. آكل وأشرب وأنام وأصحو أحمل وألد تحيط بي ألفة رقراقة يملؤها كمال بصوته المميز وتعليقاته الذكية ورائحة العطر الذي يستخدمه وطريقته في دق جرس الباب عند عودته من العمل. وكنت وأنا في البيت أطعم الصغار وأحميهم وأعلمهم المشي والكلام، أتطلع إليه وأتبعه بتلقائية ويسر في الطرقات التي يختارها ويحددها. كان رائعا وكنت أحبه.

٣

أدرت المفتاح في الباب ودفعته فانفتح. دخلت. غسلت يدي وصنعت لنفسي فنجان قهوة. حملت الدلة النحاسية الصغيرة والفنجان وكوب الماء على صينية فضية إلى الصالة حيث جلست وأشعلت سيجارة.. «ثلاثة عشر عاما مرت، فكيف مرت؟».. فاجأتني العبارة التي طفت إلى وعيي فجأة كأن شخصا آخر نطق بها وسمعتها فاندهشت. كان البيت هادئا وساكنا ولم يتغير أي شيء فيه تماما كما كان في ذلك اليوم الذي دخلناه أنا وكمال للمرة الأولى، ونحن زوجان جديدان عائدان للتو من رحلة شهر العسل.

ساعتها انفتح الباب على السكون والأثاث.. المرآة في المدخل متوسطة الحجم يعلو رفها حامل من الأرابيسك عليه نسخة مفتوحة من القرآن. ويفضي المدخل للبهو الفسيح تغطي أرضه ثلاث سجاجيد عجمية. يشغله ثلاثة أطقم متباينة من المقاعد: طقم «جوبلان» طرزت عليه يد شاغله مشاهد رعوية لأمراء وأميرات أوروبيين، وطقم لويس الثالث عشر مكون من مقعدين وأريكة ومنضدة خشبية ذات إطار محفور ومذهب، وطقم عربي من الخشب المطعم بالصدف. الصور

في الأطر الذهبية معلقة على الحائط، والمنافض البلورية وعلب السجائر المصنوعة من الفضة موضوعة على المناضد الخشبية الصغيرة في الأركان بين المقاعد.

لم يتغير في المكان شيء. يقولون: «خديجة سيدة بيت من الطراز الأول. بيتها دائما نظيف وأولادها كالأزهار».. البيت مرتب كالمعتاد ولكنه اليوم موحش.. لسعد وحشته.

إنه اليوم الأول في حياته المدرسية، أوصلته وعدت. لم يبك كأولئك الأطفال البلهاء الذين يتملكهم الذعر لدخول المدرسة، كان مقبلا ومنشرحا وجميلا كوردة متفتحة في القميص الأبيض والبنطلون الرمادي وربطة العنق الكحلية، وشعره الأملس مفروق من الجنب ومصفف بعناية. قبلته ولوحت له بيدي فابتسم ولوح لي بيده وذهب.

دق جرس الباب فقمت لأفتح للخادمة، بعدها جاء الطباخ فأعطيته التعليمات الخاصة بما سنتناوله على الغداء. تصفحت الجرائد وقرأت الصفحة الأخيرة وحظك اليوم وصفحة الوفيات.. حللت الكلمات المتقاطعة.. ثم لم أجد ما أفعله فذهبت إلى الحلاق لتصفيف شعري.

أوقفت سيارتي أمام محل الحلاق، نزلت ودخلت. غسل لي الولد شعري ثم انتقلت إلى مقعد آخر أمام المرآة وقام المصفف بلفه، وعندما انتهى صحبني إلى مجففة للشعر دسست فيها رأسي وأمسكت بمجلة مصورة رحت أتصفحها.

الأولاد يكبرون، وها هو ذا سعد يدخل المدرسة، وزينب بلغت قبل أن تكمل الثانية عشرة. إنها تنمو بسرعة مدهشة، بعد عام أو عامين

ستفوقني طولا وسوسن أيضا تكبر بسرعة، ليس جسمها فقط هو الذي يتغير يوما بعد يوم بل عقلها أيضا. تقرأ بلا انقطاع وعندما ترفع عينيها عن الكتاب لا يسمع المرء منها إلا كلمة «لا».. إنها عنيدة والكتب تغذي عنادها. أشكوها لأبيها يقول: «هكذا الأطفال في هذه السن يريدون تأكيد شخصيتهم»! ولماذا سوسن هي التي ترغب في تأكيد شخصيتها وليست زينب وهي الكبرى؟ سوسن عنيدة وأبوها يفسدها بالتدليل، يفسدهم كلهم، وعليّ أنا أن آمر وأنهي وأعاقب وأحذر وأوجِّه، عليّ أن أربي بمفردي وهو غائب، مشغول، في الصباح في المساء في الليل دائما مشغول. يطلبونه في التليفون بلا انقطاع يقول «غير موجود». وعندما يكون في البيت ويرد يتحدث ثم يضع السماعة ويقول: «آسف يا خديجة لدي عمل، لا بد أن أذهب» حتى الإجازات القصيرة يغزوها أصدقاؤه وزوجاتهم اللاتي لا يخفين إعجابهن به ويحيطون به كالذباب. «تعال يا واد خفض حرارة هذا السيشوار سيحرق رأسي». قلت له. يا كمال الأمور هكذا لم تعد محتملة. لقد قضيت السنوات الأخيرة أنتظر، أنتظر قدومك للغداء، أنتظر قدومك للعشاء، أنتظر عودتك في الليل متأخرا.. فقط أنتظر!..

قال: «سامحيني يا خديجة، لم أقصد أبدا إلا سعادتك».. ووعد أن نذهب معا لقضاء «إجازة في الإسكندرية»، «إجازة في لبنان، هديتي لك بمناسبة عيد ميلادك الثلاثين»، «ولكني لا أريد أن أبلغ الثلاثين!»..

رفعت المجففة عن شعري وتحسسته، كان قد جف تماما فقمت وجلست أمام المرآة لكي يصفف لي الشاب شعري. هتف أحد أصدقاء كمال حين عرف أن لي ثلاثة أولاد: «لا أصدق!». ضحكت وقلت: «عليك أن تصدق!». ألقيت نظرة أخيرة على المرآة، كان الشاب قد

صفف لي شعري بشكل جميل، شكرته وغادرت المحل وأنا أفكر أنني أبدو حتى وأنا على أبواب الثلاثين صغيرة وجميلة.

مساء الخميس كنا ننتظر ضيوفا على العشاء، رتبت كل شيء قبلها بيومين،أعطيت قائمة الطعام للطباخ والمال اللازم للشراء، أوصيت على أزهار، أخرجت الفضية وأكواب «الكريستال» وطقم الأطباق «الليموج» الفرنسي.

الخميس عصرا لم أنم بل ذهبت إلى الحلاق، صففت شعري وعدت. دخلت المطبخ وتأكدت من سير الأمور فيه. كان الطباخ ـ كعادته أيام الولائم ـ قد أحضر شابين أسمرين لمساعدته، وكانوا ثلاثتهم منهمكين في العمل وسط البخار المنبعث من الحلل والصواني، فوق الموقد وفي داخله.

تركت المطبخ، وذهبت إلى حجرة الأولاد. كانت زينب وسوسن جالستين كل إلى مكتبها تؤديان واجبهما المدرسي، أما سعد فكان منهمكا في اللعب بقطاره الكهربائي. سألت البنتين متى تنتهيان فأجابت زينب أن أمامها نصف ساعة أخرى، أما سوسن فأعلنت تذمرها من الواجبات التي لا معنى لها سوى تعذيب التلاميذ «ويا ماما عندما أكبر...» قاطعتها وطلبت منها أن تكف عن «الفلسفة وتكمل واجبها». وأكدت على زينب أن تغسل لسعد يده وفمه بعد العشاء وأن تلبسه البيجامة وتضعه في السرير.

كالمعتاد وصل كمال متأخرا وتمتم معتذرا وهرول ليغسل يديه ويغير ملابسه.. ثم امتلأ البيت بالضيوف وكانوا جميعا من أصدقاء كمال وزوجاتهم.

للسهرات في بيتنا مسارها المحدد، حتى وإن جلس الضيوف متناثرين. تلقائيا وبعد وقت قصير ينفصل الرجال ويتحدثون معا في الموضوعين الأثيرين لديهم: الطب والسياسة. أما النساء فيختلين ليتهامسن بآخر الأخبار. «فلان يرافق فلانة»، «زوجة الدكتور علان طلبت الطلاق من زوجها عندما عرفت بأمر زوجته الأخرى»، «فلانة مهتمة بفلان وتتبعه كظله». يتداخل كلامهن عن الناس مع آخر الطرائف والنوادر الصادرة عن أولادهن، والتي تنم دائما عن ذكاء الأولاد وتميزهم.. يتفاخرن بأولادهن كما يتفاخرن برحلاتهن الأوروبية وما حملنه من مشتريات. وأحيانا يجنح الحديث إلى الشكوى من الخادمات اللئيمات.

ولم أكن أجد متعة شخصية في النميمة ولا في الكلام عن عبقرية أولادي.. أما الحديث عن الأسفار فلم يكن لديّ ما أقوله لأشاركهن فيه. كانت سفرتي الوحيدة هي تلك التي صحبت فيها كمال لقضاء شهر العسل قبل ثلاثة عشر عاما، بعدها جاء الأولاد وكان كمال يسافر دائما بمفرده.

كنت أجد كلام الرجال أكثر طرافة وإثارة للاهتمام، ولكن كان عليّ أن أجامل النساء وأشاركهن الحديث. وكانت واجبات الضيافة بما تمليه عليّ من قيام مستمر للإشراف على تقديم المشروبات وإعداد الطعام تكسر شعوري بالملل وتنقذني من الوقوع في حرج عدم المشاركة.

طلبت المشروب فجاء أحد الشابين الأسمرين وكان الآن يرتدي بدلة سوداء. دار بصينية من الفضة عليها كئوس عصير البرتقال. تبعته

بعيني، وعندما انتهى همست له بأن يبلغ الطباخ أن يبدأ في غرف الطعام بعد ربع ساعة.

كانوا جميعا الآن يرشفون عصير البرتقال وهم ينصتون لحديث كمال عن رحلته إلى أمريكا.

- إنها حقيقة رحلة العمر.. كل شيء، كل شيء في أمريكا مبهر من ناطحات السحاب إلى الجراجات متعددة الطوابق تحت الأرض. ولكن كل هذا في كفة ومستشفى الدكتور سالينجر في كفة.

قلت وأنا أضحك:

- منذ عودته وهو لا يتحدث ولا يفكر ولا يحلم إلا في هذا المستشفى، ويريد أن يبيع الأرض التي ورثها عن أبيه ليشتري قطعة أرض للبناء هنا في القاهرة، أليس هذ تهورا يا دكتور سالم؟

قال الدكتور سالم.

- يا كمال، بع أرض أبيك ومجوهرات زوجتك وأضف إليهما مدخرات العمر وابن المستشفى، عَلِّه وعمِّره وجهزه بالأجهزة والأثاث والمرضى والممرضات فيأتي عبد الناصر ويأخذها كلها على الجاهز!

لو أن والد كمال، رحمه الله، كان معنا لوجد في الحديث موضوعه المفضل. كان يحب الجلوس مع الدكتور سالم يمضيان الوقت في انتقاد عبد الناصر وسياساته. يبدآن همسا ثم يعلو صوتهما وهما يسبانه ويدعوان عليه. كان عمي صفوت يعد الأيام في انتظار الخلاص منه. يسأل الدكتور سالم: «ما رأيك يا دكتور، ألم يقصر عمره؟». فيقول الدكتور: «والله يا صفوت بك أرى أن عمره قصر!».

فيقول عمي صفوت: «هل تقوم عليه ثورة؟». فيبتسم الدكتور سالم وهو يقول: «وإن لم تقم فإن ربنا كريم يأخذه ويخلصنا منه!». كان عمي صفوت يعد الأيام ولكن المسكين توفي وما زال عبد الناصر على حاله قويا ومهيمنا.

قمت لألقي نظرة على المائدة قبل أن أدعو الضيوف للجلوس. المائدة ممتدة بالأطعمة المتنوعة: الفطائر المحشوة باللحم المفروم، محشي ورق العنب، البامية المطبوخة باللحم الضأن. السلطات: السلطة البلدية، سلطة «بابا غنوج»، سلطة الزبادي، سلطة السمك بالمايونيز. اللحوم: شرائح اللحم البقري المزين بالخس والطماطم وأرباع الدجاج المحمر تحيط بها حبات البازلة الخضراء ومكعبات الجزر الأصفر. أما أطباق الغرف والشوك والسكاكين والملاعق والفوط البيضاء المنشاة فصفت بنظام على «البوفيه» الصغير، كما صفت الأطباق الصغيرة مع الشوك والسكاكين والملاعق الصغيرة المخصصة لأكل الفواكه والحلوى بجوار سلة ضخمة تحمل ثمار الخريف: حبات المانجو الخضراء والجوافة عاجية اللون والبلح الزغلول الأحمر. وبحذاء السلة وضعت ثلاثة أطباق كبيرة من الفضة في أولها كنافة وفي ثانيها بقلاوة وفي ثالثها بسبوسة.

درت بعيني في المكان، تأكدت من أن كل شيء كما يجب ويليق. وكان الشابان الأسمران يقفان كل في ركن استعدادا لخدمة الضيوف.. أزحت الستار الفاصل بين حجرة الطعام والصالون قائلة وأنا ابتسم: تفضلوا!

٤

شيء ما كان بيدي، أقبض عليه، أفتح قبضتي فجأة فلا أجده، أبكي، أبحث في كل مكان. هل سرق؟ من سرقه؟ هل سقط مني؟ هل تسرب من أصابعي وأنا في غفلة؟ ومتى تسرب؟ أستيقظ من نومي فأجد الدموع على وجنتي وانخطافة في قلبي «اللهم اجعله خيرا!». إنه كابوس مجرد كابوس، ولكنه يتكرر. أذهب لزيارة أمي وأنتظر عودة أبي من عمله حتى أراه بنفسي وأطمئن. آخذ الأولاد إلى الطبيب ليفحصهم فيؤكد لي أن صحتهم ممتازة. ولكن الحلم يتكرر، أحدث كمال في الأمر فيسألني: «هل يضايقك شيء؟».. «لا يضايقني شيء!».. ينصحني ألا أسرف في الأكل على العشاء وأن آخذ حماما دافئا قبل النوم.

يوقظني كمال من نومي، أسمعه يقول:

- خديجة ماذا جرى؟ تبكين وأنت نائمة!

أستوي جالسة وأسأله:

- كمال، هل تحب امرأة أخرى؟

يقول ضاحكا:

- هل الجنون يبدأ بالأحلام؟

ما الذي كان في يدي؟ ما الذي يمكن أن يتسرب من بين الأصابع كالماء؟ أسأل نفسي فيناديني سعد ويطلب مني أن أضعه في الفراش ويلح أن أتمدد بجواره حتى ينام فألبي له طلبه. أحيطه بذراعي وأشعر بجسده الدافئ على صدري. يستغرق الولد في النوم. أسمع أنفاسه المنتظمة وأرى حبات العرق على جبينه. أقول لنفسي إنني سأراه طبيبا عظيما يملأ الدنيا بنجاحه وضحكاته. أطبع قبلة على وجهه وأنتزع نفسي من الفراش.

أصحو مبكرة على غير العادة وأعد للأولاد الإفطار قبل ذهابهم إلى المدرسة. أصحبهم حتى الباب وأودعهم كأنهم مسافرون وأنتظر عودتهم بلهفة وقلق. كمال ينصحني ألا أترك نفسي للأوهام: «إنه مجرد حلم وقد تكونين مرهقة». يقترح أن أسافر إلى الإسكندرية مع الأولاد ما أن ينتهوا من الدراسة «سأستأجر لكم بيتا هناك تقضون فيه طوال أشهر الصيف». الصغار سعداء بالفكرة. بعد الامتحانات يحملنا كمال بسيارته إلى الاسكندرية ويقضي معنا هناك يوما واحدا وفي فجر اليوم التالي يغادرنا إلى القاهرة.

البيت الذي استأجره لنا كمال يقع في شارع جانبي هادئ لا يبعد كثيرا عن شاطئ البحر، وهو بيت من طابق واحد وله شرفة واسعة ويحيط به سياج تغطيه شجيرات الياسمين.. يقوم على خدمتنا شاب يشتري المطلوب من السوق قبل مجيئه في الصباح ثم يأتي وينظف البيت وبعد الغداء يذهب. يستيقظ الأولاد مبكرين وينتظرون حتى أستيقظ. نتناول إفطارنا معا ثم نذهب إلى البحر أتركهم يسبحون

ويلعبون الكرة ويبنون قصورا في الرمال وأجلس في شرفة مقهى الشاطئ أحتسي القهوة وأدخن وأتصفح المجلات وأراقب زرقة البحر الممتدة والأمواج وهي تتعاقب، تعلو وترتطم بالأحجار المكعبة الضخمة التي تحول بينها وبين الشاطئ. أدخن، وأراقب الرذاذ المتطاير والزبد وانحسار الموج وتملأ رائحة البحر أنفي وتختلط برائحة القهوة التي أحتسيها.

في الثانية ظهرا نعود إلى البيت نتناول غداءنا ثم نستريح قليلا، وفي العصر نتمشى على الكورنيش. وعندما نعود نتناول عشاءنا في الشرفة ثم يذهب الأولاد فينامون وأبقى أنا حتى يغلبني النعاس فأنام. الأولاد سعداء يأكلون كالذئاب ويستمتعون بالبحر والشمس ورمال الشاطئ، ويقضون الأمسيات في الشرفة يضحكون بسبب وبلا سبب. يتبادلون النكات والحكايات ويتفننون في ابتكار الألعاب والتسالي. سوسن تقلد مصطفى كامل في وقفته وحركة ذراعه وخطابه وتكرر بحسرة: «نسيت أن آتي بطربوش جدي صفوت من القاهرة، حمارة!». ورغم غياب الطربوش كانت سوسن تقوم بدورها المفضل كل ليلة فأضحك وأنا أراها تخلط الكلمات المأثورة للزعيم بكلام من عندها طفولي تلقيه بصوت عال ولهجة خطابية.

أقول لسعد: «وأنت يا سعد ماذا تريد أن تكون عندما تكبر؟». فيجيب بجدية: «عسكري مرور». فأضحك: «ولماذا عسكري مرور؟»، «لكي أنفخ في الصفارة فلا تقولوا اسكت وجعت دماغنا!». فأقول له دون أن أضحك هذه المرة إنه سوف يكون طبيبا كبيرا كأبيه. وأسأل. «وأنتِ يا زينب؟» فلا تمهلها سوسن: «زينب أختي ستكون أما حليمة ورحيمة وستملأ عليك البيت بالأحفاد، ستخلف طفلا كل

تسعة أشهر فيكون في بطنها واحد وعلى صدرها واحد وفي يدها واحد وفي ذيلها واحد، وواحد على السرير، وواحد على الشجرة، وفي الحضانة واحد وفي المدرسة واحد وفي الجامعة... . تقاطعها زينب محتجة: «والله إنك سخيفة». وتجيب سوسن ساخرة: «فعلا لقد أخطأت. تصورت زينب حليمة مع الصغار، وها هي ذي لا تحتملني مع أني أصغر منها. أقول لكم نكتة؟». وتنقل سوسن الحديث إلى ساحة أخرى من الهزل فيضحكون وأضحك، ثم يقولون. «تصبحي على خير يا ماما». ويذهبون للنوم.

أبقى في الشرفة وحدي، ويغلب الصمت على المكان يؤكده صوت انكسار الموج على الصخور الهائلة وصرير حشرة ليلية.. لا شيء.. يتقدم الليل.. ما الذي يتسرب من بين أصابع اليدين كأنه الماء؟

٥

تمر الأيام، تجري، تقطر في ذيلها الأسابيع والشهور. ولم تكن الشعرة البيضاء في مفرقي التي فاجأتني ونزعتها هي وحدها التي دفعت بالفكرة إلى خاطري، ولكنهم الأولاد الذين أراهم يكبرون كل ساعة. قالت عمتي كريمة عندما جاءت من البلد لزيارتنا معلقة على جسد زينب النامي: «لقد خرطها خراط البنات» وضحكت. نظرت إلى زينب فأدهشني تكور ثدييها واستدارة ردفيها.. رأيتها امرأة صغيرة أمام عيني.. هكذا بسرعة؟ اجتاحني شعور كأنه قلق أو رهبة أو ضيق أو ربما خوف معجون بفرح. لا يكبر جسد سوسن بنفس السرعة. عقلها هو الذي يكبر وعنادها. إنها عنيدة صاخبة متمردة ومتبرمة بداعٍ وبلا داع! قالت لأبيها إنها تريد دراجة فأجابها باستغراب: «وأين تركبينها؟»، «مثل الناس، في الشارع!». فقال لها أبوها إنها بلا عقل: «إننا نسكن في وسط المدينة وسيل السيارات لا ينقطع، فهل تركبين دراجتك في ميدان مصطفى كامل أم في شارع قصر النيل أم تتنزهين بها في ميدان العتبة؟». قالت: «إذن اشتركوا لنا في نادٍ».

تلقف منها سعد وزينب الفكرة وأخذا يلحان معها حتى استجاب أبوهم لطلبهم.

أيام العطلات آخذ الأولاد إلى النادي، تلتقي زينب بصديقاتها وتركب سوسن دراجتها، ويلعب سعد في حديقة الأطفال. أما أنا فأجلس وحدي أو مع آخرين. عندما يصحبنا كمال يصبح اليوم مختلفا، نتمشى معا، نتحدث، نحتسي القهوة وندخن ونضحك، أشعر بالسعادة، ولكن كمال نادرا ما يأتي معنا.

في النادي عدد كبير من زوجات الأطباء زملاء كمال. عندما يلمحنني يأتين نشرب قهوتنا معا. يتحدثن عن أولادهن ومتاعب الخادمات والموضات الجديدة ويثرثرن بآخر الشائعات حول أزواج الأخريات، يثرثرن بلا توقف وأعجب من قدرتهن الفائقة على الكلام المتصل. أنصت وأبتسم. أحيانا أعلق ولكنني لا أجد شيئا ذا بال أقوله، وكثيرا ما أتساءل كيف يحتفظ المرء بقدرته على الثرثرة بعد تجاوزه سنوات الطفولة. ولكني لم أكن أضج بحديثهن فلولاه لمرت عليّ ساعات ثقيلة أجلس وحدي أنتظر أن ينتهي الأولاد من اللعب.

كان يوما خريفيا دافئا، وكنت أجلس وحدي عندما سمعته يهتف باسمي. أدرت رأسي ولم أتعرف عليه. كان في الوجه شيء أليف، الابتسامة ربما، لكني لم أعرفه إلا عندما قال اسمه.. إنه مجدي، الولد الصغير الذي كان يشاركني اللعب مع أخي أحمد لكنه الآن لم يعد ولدا بل رجل، شاب مربع مفتول العضلات يظهر شعر صدره الأسود الكثيف من فتحة قميصه، أسمر له شارب كث ويلبس نظارة طبية ويتحدث بصوت خشن، صوت رجل.

جلس مجدي وطلبنا القهوة وضحكنا طويلا ونحن نسترجع

ذكريات طفولتنا والخناقات اليومية التي كانت تنشأ بيننا. قال وهو يضحك: «عندما كنا نختلف تتركيننا معلنة أنكِ لن تلعبي معنا طوال حياتك ونحن أيضا نعلن أننا مخاصمينك وإلى الأبد». قلت وأنا أضحك: «وبعد ربع ساعة نختلق الأسباب لكي نتصالح!».

صرنا نلتقي، أنا ومجدي، نجدد صداقة الطفولة، نثرثر ونتواصل ويقول مازحا: «لكن الغريب يا خديجة أنك لا تتشاجرين معي.. فكيف؟». فأضحك: «لم أعد أتشاجر مع أحد!». يضحك ويقول: «غريبة!».

سألني عن أحمد فحكيت: «سافر للدراسة في أمريكا ثم قرر الإقامة هناك.. وهو الآن متزوج وله بنتان. لو تسألني إن كان سعيدا سأقول لك إني لا أدري فهو بعيد، لا يكتب إلا بطاقة في المناسبات ويتصل تليفونيا بأبي وأمي مرة في السنة، وهما يعيشان على أمل عودته وكأن رجوعه إلى البيت سيعيد إلى عمرهما شبابه. لو رأيت أبي الآن فلن تصدق عينيك».

جاءني مجدي بلفافة كبيرة وقال وهو يفض الغلاف إنها صورة اشتراها قبل عشر سنوات. كانت الصورة لإمرأة من التاريخ القديم لها وجه مستطيل وأنف مستقيم وشفتان بهما شيء من امتلاء وعيناها سوداوان لوزيتان مسحوبتان بشكل ملحوظ من طرفيهما. وكان قرطها طويلا وعقدها متعدد الأفرع يؤكدان جمال عنق المرأة وطوله، وكان يعلو رأسها تاج مرصع.

- ملكة؟

- ملكة سومرية قديمة.

- ألا تعتقدين أنها تشبهك؟

- نعم؟ لا أرى أي شبه.

قال مجدي بعناد:

- بلى إنها تشبهك، أنت أحلى قليلا ولكنها تشبهك.

حدثت أبي وأمي عن لقائي بمجدي وحدثت كمال أيضا، ورتبت أن نتناول جميعا الغداء معا يوم جمعة بالنادي. بعدها دعانا إلى بيته. ولما ذهبنا فاجأني تميز المكان. كانت شقة صغيرة ولكنها مؤثثة بما ينم عن ذوق رفيع.. فأثاثها من الطراز العربي المصنوع من الخشب المطعم بالصدف، وأبسطتها من نسيج الأنوال الشعبية زاهية الألوان، والنباتات المنزلية الخضراء تضفي على المكان خصوصية وجمالا وكانت صورة الملكة السومرية التي قال إنها تشبهني تحتل مكانا في مكتبة كبيرة تتصدر الحجرة التي جلسنا فيها.

أكلنا وشربنا وتحدثنا وضحكنا وتربع الأولاد على الأرض يتابعون الحديث في شغف.. وعندما غادرنا قال كمال: «إن مجدي شاب لطيف وذكي و«لا تنسي يا خديجة أن تدعيه إلى بيتنا في أول وليمة قادمة». وقالت أمي وهي تدب بخطوتها الثقيلة على السلم. «ذكرنا بأيام زمان التي لا تعوض». وقال أبي وهو يمسك بذراع كمال يستند إليه: «كان ينقصنا أحمد، عندما يرجع بالسلامة سأدعو مجدي إلى بيتنا ونجدد هذه السهرة الجميلة».

أصبح مجدي صديقا حميما يلجأ إليّ يطلب مشورتي في كل صغيرة وكبيرة. إنه وحيد وغير مستقر وأنا كأخته.

حلمت أنني أزوره في بيته الذي كان جميلا كما في الواقع، أجمل ربما مما في الواقع: زرع أخضر وأرابيسك. قال إنه يريدني. قلت إن هذا مستحيل، ولكنه عندما مد يديه إليّ تعانقنا، وكان شيء ما يهوي في داخلي من حلقي إلى صدري إلى معدتي إلى أسفل بطني، شيء ما كأنه روحي. استيقظت من نومي فزعة وأنا أكرر أن ذلك غير ممكن وغير صحيح؛ لأنه أخي ولا أحد يقبِّل أخاه بهذا الشكل لا في الحقيقة ولا في الأحلام. ولكن الحلم ظل يتعقبني كأمر واقع لا أملك إنكاره وكنت أتساءل: «هل يريدني مجدي؟ وهل أحسست برغبته بشكل تلقائي لم أعه؟».. ولكني امرأة متزوجة وأحب زوجي وأولادي وهو صديق وليس سوى صديق فما الذي يريده مني؟

لم أذهب إلى النادي لأسبوعين متتاليين، وعندما ذهبت رأيته فسأل:«ما بك؟»، قلت: «لا شيء!»، قال: «وجهك ممتقع»، قلت: «ألم أقل لك إنني كنت متوعكة»، قال: «اعتني بنفسك أم تريدينني أن أعتني أنا بك؟». وضحك، فماذا قصد بهذا الكلام. ناديت على الأولاد وغادرت إلى البيت.

وجدت خطابا غراميا في دولاب زينب. كنت دائما أتوقع أن أجد رسالة من هذا النوع بين ملابس كمال. أبحث أحيانا في جيب سترته، بين قمصانه، في حقيبته ولا أجد شيئا. ولكني اليوم وجدت خطابا موجها لابنتي زينب من شاب يقول لها إنه يحبها، يحب عينيها وشعرها واسمها وكل شيء فيها «ما شاء الله!» وأنا كالطرطور لا أعرف من أمر ابنتي شيئا.

ما إن عادت من المدرسة حتى أخذتها إلى غرفتي وأغلقت الباب.

واجهتها بالرسالة. ضربتها وشتمتها وصرخت فيها قائلة: «إن البنت التي لا تحترم نفسها لا يحترمها أحد». قلت: «لو تكرر هذا الأمر فأنا أنذرك! سأحبسك في البيت، لا مدرسة ولا نادي، حتى باب البيت لن تريه بعينيك».

لم تظهر زينب على مائدة الغداء.. سأل كمال سوسن: «أين أختك؟». أجابته: «عندها صداع أخذت مسكِّنا ونامت». ونظرت إليّ وشفتاها مزمومتان.. هذه البنت وقحة.

في المساء دخلت حجرة البنتين فوجدت زينب تبكي، زجرتها وهددتها بالضرب إن لم تكف «ويكفي دلع وقلة أدب!». قالت سوسن إنها تريد أن تتحدث معي «على انفراد»، عجيب أمر هذه البنت. لحقتني إلى غرفة نومي وأغلقت الباب.

- ما فعلته بزينب غلط.

- لا تتدخلي فيما لا يعنيك. أنا أمها وأربيها كما أرى مناسبا. لقد أخطأت ومن حقي أن أعاقبها.

- ماذا فعلت لكي تعاقبيها بالضرب؟

- ليس هذا من شأنك، هي تعرف وهذا يكفي.

- أنا أيضا أعرف. لم يكن سؤالي استفهاما، كان احتجاجا. شاب كتب لها أحبك وهي حتى لا تعرفه فتهينينها كأنها أجرمت.

كان ذلك أكثر مما يحتمل الإنسان. كظمت غيظي وتمالكت نفسي بما يكفي. ولكني لم أستطع التحمل. لطمتها على خدها وأنا أصرخ فيها:

- ما شاء الله! هل تعطينني دروسا في التربية؟ أنا الأم، أنا آمر وأنا أنهي وأنتم تطيعون فقط وبلا نقاش.

قالت وهي تترك الحجرة:

- أنت مخطئة يا ماما.

أغلقت باب حجرة نومي بالمفتاح. كنت حزينة وغاضبة من تهور زينب وسلوكها غير المسئول، من تبجح سوسن ووقاحتها. ماذا أفعل لو أفلتت البنتان ولم أستطع لجمهما؟ ستكون مصيبة، سيقول الناس فشلت خديجة في تربية بنتيها، وكمال أيضا سيقول الشيء نفسه رغم أنه لا يساعدني وعندما أشكو له يقول إنها مسئوليتي وإن واجبه أن يعمل خارج البيت ليوفر لنا الحياة الكريمة.

أخرجت منديلا مطويا من درج الخزانة الصغيرة ومسحت دموعي ثم تمخطت. جلست على المقعد المقابل للسرير وأشعلت سيجارة. من يدري؟ ربما كانت هذه الرسالة ناقوسا صغيرا ينبهني إلى أن البنت كبرت وأن عليّ أن أكون أكثر حرصا. لم تعد زينب طفلة بل أصبحت فتاة يهواها الشباب ويكتبون لها خطابات الغرام. هل حان وقت التفكير في تزويجها؟ تمخطت وأشعلت سيجارة أخرى. ليست زينب هي المشكلة، وقد تكون أخطأت ولكنها ترتدع وتطيع. أما سوسن فيا خوفي من سوسن!.. كانت تنظر إليّ بصفاقة، إنها لا تخافني، ولا تخاف أحدا.. فما العمل في بنت لا تخاف أحدا؟

سألني كمال:

- ما بك؟

- لا شيء.

- كنت تبكين؟

- سوسن قليلة الأدب، كنت أوبخها فردت عليّ بشكل لا يليق.

- وبخيها كما يحلو لك ولكن لا داعي لأن تنهي توبيخك بالبكاء.

لم أقل له شيئا عن موضوع زينب لكني حكيت الحكاية كلها لمجدي عندما التقيت به، قال:

- لا تظلمي البنت قد يكون الشاب أعجب بها عن بعد وأرسل لها هذه الرسالة. كلنا فعلنا ذلك في مراهقتنا.

- أنت كنت تفعل ذلك؟

- طبعا.

- كلام، مجرد كلام تقوله لتخفف من حدة غضبي على البنت.

- والله إني كتبت عشرات الرسائل الغرامية لبنات لم أكن أعرف عنهن أكثر من الاسم الأول.. أرى بنت الجيران في الشرفة أو في الشارع عائدة من المدرسة فأقع في حبها وأقضي الليل ساهرا أتغزل في شعرها وعينيها على الورق.

- ولكنك لم ترسل لي أبدا رسائل من هذا النوع.. ألم أكن أنا بنت الجيران؟

ضحكت أما هو فلم يضحك، وعاد بالحديث إلى موضوع زينب ونصحني أن أتحدث معها بهدوء، فقلت له إنني لن أتمالك نفسي لأني غاضبة: «لم لا تتحدث أنت معها؟» فحدثها.

بعدها قال:

- ظلمت البنت يا خديجة، كما توقعت.. الشاب أعجب بها وهي لا تعرفه. لقد أرفق بالخطاب صورة له لكي تميزه عن الشباب الآخرين.

مجدي صديق أصيل وهو يساعدني في تربية الأولاد، محظوظة من تتزوجه.

- لماذا لا تتزوج يا مجدي؟

- لو تجدين لي عروسة أتزوج.

- هل تمزح؟

- أبدا.. هذه الفتاة ذات الشعر الأسود التي ألعب معها «بنج بونج» إنها لطيفة جدّا فكرت أكثر من مرة في إمكانية...

- ولكنها صغيرة، إنها في عمر زينب..

- لا أدري، ربما.

قلت وأنا أضحك مداراة لشعور مفاجئ بالحرج:

- إذا كانت في سن زينب.

- تكون أيضا في سن سوسن، ألم تقولي إن الفرق بينهما أقل من سنتين.

- لم أقصد...

- خديجة هل تعطيني سوسن؟ لو قلت نعم سأنتظر

- أعطيك زينب.

- ولماذا لا تعطيني سوسن؟

- زينب أطيب وأحلى وهي الكبرى.

- ولكن سوسن هي التي تشبهك.

- سوسن لا تشبهني، إنها عنيدة ولا تخاف أحدا.

طلب مجدي يد زينب من أبيها فوافق ولكنه اشترط ألا يتم إعلان الخطبة رسميا إلا عندما تتم زينب عامها الخامس عشر وفاتحت أنا زينب في الأمر فاستغربته ثم وافقت ولكنها لم تبد حماسا إلا عندما تحدث مجدي معها. سألتها: «ماذا قال لك هذا العريس الماكر؟»، فتدخل مجدي قائلا: «إنه سر بيننا»، ثم وهو يضحك: «ماذا جري يا خديجة، هل بدأت تؤدين دور الحماة بهذه السرعة؟ أرجوك ألا تتدخلي بيني وبين زوجتي!». واستمر يضحك وضحكت زينب وضحكت أنا أيضا رغم شعور مفاجئ بعدم الارتياح.

فرحتي بخطبة مجدي وزينب بلا حدود. بإمكاني الآن الاطمئنان على البنت. سيحميها مجدي ويصونها ويرعاها ويشكلها كما يحلو له، وسيسمح لها أن تنمو وتزدهر تماما كتلك النباتات المنزلية الخضراء البديعة التي تملأ بيته.

اصطحبت زينب إلى مدام لاورا لتحيك لها ثوبا لحفل الخطوبة. قلبت في عشرات المجلات حتى استقر رأيي على الثوب المناسب وأخذت مدام لاورا المقاسات وقمت أنا بشراء القماش.

وفي اليوم المحدد للقياس جلست على المقعد الوثير المواجه للمرايا الكبيرة في بيت مدام لاورا أتأمل زينب في الثوب الذي تقيسه مأخوذة وفخورة وبي شيء من وجل. هذه البنت الجميلة ابنتي.. طويلة

وبيضاء وبضة كأهل أبيها، ولكن شعرها وعينيها سود مثلي «أريد النحر مفتوحا أكثر من ذلك». أدارت مدام لاورا مقصها الكبير في القماش ووسعت فتحة النحر. قلت «وقصري الطول قليلا». ركعت الخياطة على ركبتها وأخذت تثني ذيل الفستان بالدبابيس. سألت: «هذا الطول مناسب؟». قمت من على المقعد وابتعدت قليلا قلت: «لا، هذا أقصر مما يجب، أريده بين هذا الطول والطول السابق».

كان الثوب مشدودا على جسد زينب حتى الخصر، يبرز امتلاء صدرها ونحول خصرها، ثم ينزل بعد ذلك واسعا وفضفاضا بكسرات سخية. قلت للخياطة: «سلمت يداك.الخياطة الماهرة تظهر جودة القماش». فضحكت للإطراء وقالت إن القالب غالب.

مقص مدام لاورا لا يُعلى عليه، وأناملها تبدع وتجيد. ولا شيء في مظهرها ينم عن قدرتها الخاصة، فهي امرأة مميزة القصر ممتلئة الصدر والردفين، تلبس ثوبا منزليا بسيطا وتلم شعرها الرمادي في شبكة من خيوط سوداء دقيقة وتخلط العربية بالفرنسية والإيطالية. من يلقاها في الشارع دون سابق معرفة يظنها بائعة يونانية في محل للخردوات، ولكنها مدام لاورا أمهر خياطة في البلد، لا يذهب إليها إلا صاحبات الذوق الرفيع والجيب الممتلئ.

ساعدت مدام لاورا زينب على خلع الثوب المثبت بعشرات الدبابيس، واتفقت معها على موعد القياس الثاني ثم موعد الاستلام قبل الخطبة بثلاثة أيام «إذن سنأتي لآخذ الفستان بعد ظهر الاثنين ٥ يونيه» أكدت عليها ونحن نغادر.

٦

زينب تبكي بلا انقطاع وتكرر أن حظها سيئ، وأنا أهوِّن عليها مؤكدة أن الأمر عابر وما أن تمر هذه الأيام حتى أقيم لك حفل خطبة أكبر وأفخم من الذي ألغي.

كان الراديو «الزينيت» الكبير الذي أبقيناه مفتوحا يواصل إذاعة البيانات العسكرية تعقبها المارشات وأغاني عبد الحليم حافظ، ثم يعود للبيانات مرة أخرى، ولا تكاد صفارات الإنذار المتصلة التي تعلن الأمان تدق حتى تعلن الصفارات المتقاطعة عن غارة جوية جديدة.

منذ أمس الأول لم يعد كمال إلى البيت. اتصل بي بعد ظهر الاثنين من قصر العيني وقال إنه قد يذهب مع زملاء آخرين إلى السويس، وانتقل أبي وأمي للإقامة معنا. والليلة كما في الليلتين السابقتين كانت الساعات تمر ببطء غريب، يحيط بنا ظلام، فأضواء البيت مطفأة وكذلك أضواء الشارع الذي توقفت فيه كل حركة وسكنت الأصوات إلا من تحذير شاب أو آخر من شباب الدفاع المدني يصيح «طفي النور... يتقدم الليل موحشا وصامتا إلا من صوت المذياع واضحا حين تضبط سوسن مؤشره على إذاعة القاهرة أو صوت

العرب ومذبذبا تعتريه الخرفشة حين تضبطه على الإذاعة البريطانية أو محطة إسرائيل فتلصق أذنها بالمذياع تنصت ثم تعيد ما سمعته بصوت عالٍ على جدها لكي يتمكن من فهم ما تقول.

أبي وأمي ينامان في حجرة الأولاد ومعهما سعد، أما زينب وسوسن فتنامان بجواري. والليلة بعد أن دخلنا إلى الفراش ونمنا استيقظت من نومي على صوت بكاء مكتوم. أضأت المصباح الجانبي وأنا أفكر أن زينب بلهاء لا تزال تبكي على تأجيل خطبتها، ولكني وجدت زينب تغط في نوم عميق وكانت سوسن هي التي تبكي «ما بك؟» «لا شيء». حاولت أن أضمها إلى صدري ولكنها انكمشت بعيدا كحيوان نافر.

البيانات العسكرية تتحدث عن الانسحاب إلى خط الدفاع الثاني ولم يكن أي منا يعرف أين يقع خط الدفاع هذا ولا معناه بالنسبة لسير الحرب، ولكن كان واضحا الآن أن الوضع سيئ بالنسبة لنا.

لم يعد كمال إلى البيت منذ نشوب الحرب صباح الاثنين، ورغم قلقي عليه فإنني كنت أشد قلقا على سوسن. فعيناها غائرتان اتسعتا حتى ابتلعتا ثلث وجهها، تتحرك في البيت غائبة وصامتة، ولم تخرج عن صمتها إلا عندما قال أبي إن عبد الناصر أضاع البلد وخربها وكان ما كان، فقالت له إنه رجل خرف من الأفضل أن يبقي لسانه في فمه! وكدت أوبخها على سوء سلوكها ولكني لم أفعل.. البنت متعبة، أشفق عليها.

الخميس ليلا عاد كمال، فراح أبي يسأله: «أين خط الدفاع الثاني؟ ما معنى قبول وقف إطلاق النار الآن؟ هل انسحب الجيش المصري

من كل سيناء؟ هل احتلها الإسرائيليون؟ هل هناك جرحى كثيرون؟ ما عدد القتلى؟». كان أبي يسأل ولا تأتيه إجابة عن أسئلته، فيسأل أسئلة أخرى ثم يعود إلى الأسئلة الأولى. قال كمال بصوت عالٍ لكي يسمعه أبي: «انتهى يا عمي، انتهى، خسرنا الحرب». وقام وطلب مني أن أصنع له كوبا من الشاي «سأشربه في غرفتي».

كانت ليلة ثقيلة وطويلة قضيتها في الفراش مع كمال من دون أن يغمض لنا جفن ولم يفتح أي منا فمه بكلمة كأن أحدنا نائم والآخر وحده هو المستيقظ. كان كمال يتقلب كثيرا في الفراش ثم استقر على جانبه الأيمن فلم أعد أرى وجهه بعدما سمعته يبكي، ينشج وينتحب بصوت مكبل ومكتوم، فاجتاحني فزع هائل ووجدت نفسي غير قادرة على أن أفعل أي شيء ولا حتى أن أمد يدي وأربت على كتفه أو أمسك بيده.. كنت خائفة إلى حد التخشب في مكاني حتى صباح الجمعة.

جمعة حزينة في البيت والشارع، يتردد فيها صوت القارئ فتتأكد الوحشة، وحشة المآتم الكبيرة. لم تدر الخادمة بالبخور المخلوط بالمستكة والحبهان، فهي لم تأتِ، ولم يستحم الأولاد كالمعتاد. جلس سعد وزينب واجمين. أما سوسن فبقيت في سريرها حتى بعد الظهر كمال يدخن ويشرب القهوة ولا يكلم أحدا، وأبي يثرثر بلا انقطاع، وأمي تحدجه بنظرات رادعة ولكنه يواصل حديثا لا يوليه أحد اهتماما. ثم جاء مجدي وشربنا شايا ثم قهوة ثم شايا ثم قهوة في انتظار الثامنة مساء.

في الثامنة ظهر عبد الناصر على التلفزيون قال إننا هزمنا في

المعركة. سماها نكسة، وأعلن تنحيه عن رئاسة الجمهورية. انتهى الخطاب، المذيع ينتحب وكمال ومجدي يحدقان أمامهما ولا يقولان شيئا. أبي يبكي فتزجره أمي. أسمع طرقة الباب.. «سوسن!» أنادي، أين ستذهب هذه المجنونة؟ أفتح الباب وأنزل إلى الشارع راكضة وراءها فأراها أمامي تركض في الشارع المهجور. أنادي عليها ولكنها لا تستدير. أركض حتى ألحق بها وأمسك بذراعها «هل جننت؟ إلى أين تذهبين؟». أجرها جرا في اتجاه البيت، وهي تكرر بإلحاح، برجاء، بتوسل: «أرجوك، أرجوك يا أمي اتركيني!». ولكني أسحبها حتى أعود بها.

أجد زينب وسعد ومجدي وأبي وأمي واقفين على السلم. أبي يوبخ سوسن وأمي تزجره وتقول له ألا يتدخل. أسحب سوسن إلى حجرتها وأنا أقول: «عندما تتمين ٢١ سنة افعلي ما تشائين. عندك ١٣ سنة تسمعي كلامي. أنا ولية أمرك. أنا المسئولة عنك!». طرقت الباب ورائي وأغلقته عليها بالمفتاح. كان كمال جالسا أمام التلفزيون المغلق يحدق فيه كأنه مفتوح. لم يحرك ساكنا. هكذا هو.. ترك ابنته تركض في الشوارع وهو جالس بلا حراك. كنت ما زلت ألهث متقطعة الأنفاس. صدري يعلو ويهبط من الركض والانفعال. قال أبي: «ابنتك مجنونة!». فلم أعلق ولكني فكرت أنها فعلا مجنونة.. هل تفعل بنفسها شيئا؟ فانتفضت من مكاني كالملدوغة وقمت لأطمئن.

فتحت الباب فوجدتها جالسة على الأرض تسند ظهرها إلى السرير وتخفي وجهها بكفيها. هذه البنت مجنونة قد تؤذي نفسها، قد تفتح النافذة وتقفز منها، قد تدق رأسها في الحائط وتشجه.

هرولت إلى المطبخ وأتيت بحبل غسيل وربطت الحبل في عمود السرير وعقدته ثم لففته حول جذعها وخصرها مرة وثانية ثم ثالثة. نظرت إليّ وكأنها انتبهت فجأة وصرخت: «ماما ماذا تفعلين؟». لم أجبها واتجهت إلى باب الحجرة ولكني قبل أن أغادرها استدرت لأتأكد. كانت سوسن مقيدة تماما بالحبل إلى رجل السرير الخشبية الضخمة لا تستطيع أن تتحرك.. مستحيل أن تؤذي نفسها! أغلقت الباب وذهبت.

دخلت إلى المطبخ لأصنع لنفسي فنجانا من القهوة. جاء سعد وقال: «ماما، بابا وجدي ومجدي يريدون قهوة». ثم شب على أطراف أصابعه وأحاطني بذراعيه وقبلني في كتفي وقال: «ماما لا تبكي!» فانتبهت لكوني أبكي. قبَّلت سعد ومسحت دموعي وأكملت صنع القهوة ثم حملتها إليهم. لم أجدهم بالصالة، كانوا بالشرفة وقال مجدي مفسرا: «يبدو أن هناك تجمهرا سمعنا جلبة وأصواتا».

صوت يقترب، يعلو ويهبط، يظهر ويختفي، يدور ويقف كأنه آلة ضخمة أو عجلات قطار أو موج بحر بعيد.

- إنها مظاهرة.

- وهل هذا وقت المظاهرات؟

- من يدري لعلها مظاهرة ضد عبد الناصر، ثورة يعني.

نحدق في العتمة ولكننا لا نرى شيئا، ثم سمعنا:

«تحيا مصر.. تحيا مصر». وهتف سعد وهو يشير بيده إلى كتلة صغيرة بدت في الشارع المواجه، الكتلة تكبر والأصوات تعلو، ليست مظاهرة واحدة فالأصوات تأتي من جهات متعددة. ثلاث

كتل بشرية نراها الآن تتدفق إلى الميدان حيث التمثال البرونزي. البشر يملأون الميدان الذي لا يتسع فيفيضون في الشوارع ويعلو صوتهم مدويا يرج البنايات العالية التي كان سكانها مثلنا واقفين في الشرفات يشاهدون.. قال أبي.

- هذا الرجل داهية. تنحى عن الحكم ثم أطلق الناس في الشوارع لكي يقولوا له ارجع!

قال كمال:

- أشك.

قال مجدي:

- بصرف النظر عن الحقيقة، الشيء المؤكد أنه أغرقنا، وهو المسئول. فلينتظر إذن حتى يجد لنا مخرجا.

همست زينب في أذن مجدي. سألتها:

- ماذا تريدين؟

تلعثمت ثم قالت:

- كنت أطلب منه أن يرجوك أن تسامحي سوسن وتفكي قيدها.

- لا تتدخلي فيما لا يخصك!

تتحرك الكتلة لتدخل الشارع الذي لا يسعها فتمتد مستطيلة لتتقدم باتجاه شارع الجمهورية.

- إلى أين سيذهبون؟

- ربما إلى ميدان عابدين أو إلى مجلس الأمة.

- وربما لا يقصدون مكانا محددا.

كان الميدان الآن قد عاد خاليا تماما إلا من تمثال مصطفى كامل ولكن الصوت بقي مسموعا وعاليا:

بالروح بالدم.. حنكمل المشوار.. بالروح بالدم.. نفديك يا مصر..

قال سعد:

- إذن سوسن كانت تريد أن تمشي في المظاهرة.

قلت:

- سوسن مجنونة.

وتركتهم واقفين في الشرفة وذهبت لأطمئن عليها. أدرت المفتاح في الباب ودخلت. كانت في مكانها جالسة على الأرض مقيدة في رجل السرير تسند رأسها إلى ركبتها ولا تحرك ساكنا. أغلقت الباب وذهبت.

٧

أقمت لزينب حفل خطبة كبيرا، تماما كما وعدتها. اكتظ البيت بالمدعوين وبدت زينب في أبهى صورة: ينطق الثوب الوردي جمالها، ويتلألا الماس على نحرها، وينزل شعرها الأسود الكثيف متموجا وسخيا على كتفيها.

أروح وأجيء، أرحب بالضيوف وأشرف على تقديم الشربات والحلوى المصفوفة بعناية على صواني كبيرة من الفضة وأطمئن على سير الأمور في المطبخ حيث ثلاثة من الطباخين المهرة يعدون طعام العشاء.

ثم يلبس مجدي زينب خاتم الخطبة وإسوارة من الماس، فنصفق وتطلق الخادمات الزغاريد ويلتقط المصورون الصور. قبَّلت العروسين ثم قلت: «مبروك يا كمال وعقبال سوسن وسعد»، «مبروك يا خديجة». قالها وهو يميل على وجنتي ويقبلني ولاحظت أن عينيه دامعتان وأن بوجهه شيئا من شحوب.

ليس لديّ دقيقة فراغ واحدة. لديّ عمل كثير ومسئوليات كبيرة. أختار لزينب موديلات الفساتين من المجلات الفرنسية والإيطالية

وأشتري الأقمشة وأحملها إلى الخياطين وأوصي على مجلات للأثاث من ألمانيا والسويد لأنتقي منها ما ينفذه صانعو الأثاث في دمياط. كالمعتاد كمال غائب كأن زينب ابنتي وحدي. يعمل طوال اليوم ويعود في الليل مرهقا فلا يتبادل معي سوى كلمات معدودة.

كان مجدي في زيارتنا يوم الجمعة وكنا نجلس مجتمعين في الصالون نتناول الشاي. أتيت بمجلات الأثاث لكي أعرض بعض ما اخترت على مجدي وزينب وكمال، فإذا بمجدي يقول:

- ولكن أثاث بيتي جميل ولن نشتري أثاثا أفضل منه، فإن كانت زينب توافقني نجري تعديلات بسيطة ونحتفظ بالأثاث الحالي.. ما رأيك يا زينب؟

فاجأني الكلام ووجدته لا يعقل.

- تقصد ألا نجهز زينب؟

- جهزي كما تريدين ولكن بالنسبة لأثاث غرف الجلوس والأكل والنوم.. فلا داعي.

- وما الذي يتبقى إذن؟

- أشياء كثيرة: المطبخ، السجاد، الثريات.

- هذه الأشياء على العريس.

- إذن سأشتريها.

-ونحن لا نشترى شيئا؟

تدخَّل كمال في الحديث:

- ما رأيك يا زينب؟

- لا أمانع في الاحتفاظ بالأثاث القديم ما دام مجدي يحبه.

ما يقولونه سخف ولا علاقة له بالمنطق.. أعلنت بحسم:

- زينب عروسة ولا بد أن تدخل إلى بيت يليق بها.

- الله يسامحك يا خديجة. هذا البيت كونته بنفسي قطعة قطعة وأعتقد أنه جميل ويليق بزينب.

- وأنا أعتقد أنه لا يليق بها أو بنا.

موقف مجدي غريب والأغرب منه موقف كمال.. لا ليس غريبا موقف كمال. هكذا كان دائما يخالفني فيما أقول ويخذلني في المواقف التي أحتاج فيها إلى مساعدته! كيف تتزوج البنت في بيت أثاثه قديم؟ وماذا يقول الناس؟ الدكتور كمال صفوت الجراح الكبير لم يجهز ابنته، ابنته البكر، فرحته الأولى! ستكون فضيحة، سيقولون أخذوا المهر ولم يجهزوا البنت! في الليل قلت رأيي لكمال قال:

- ليست المسألة شكلية يا خديجة، وهما اللذان سيعيشان في هذا البيت. وبالمناسبة شقة مجدي مفروشة بذوق جميل، ولو تذكرين أول مرة زرناه قلت لي إن الأثاث جميل.

لا أذكر! وحتى لو قلت ذلك فكلامي كان تعليقا على شقة عازب، ولكن شقة ابنتي أوثثها كما يحلو لي ويليق بها.. ثم ماذا يقول الناس؟ أخذوا المهر ولم يقدموا شيئا!

- اضربي المهر في ثلاثة واشتري لها هدية. لم لا تقدمين لهما تذاكر سفر إلى أوروبا لقضاء شهر العسل؟

كمال لا يتفهمني. أنهى النقاش بشكل جارح وقال لي أن أترك الأولاد وشأنهم وألا أفسد حياتهم بتسلطي! لماذا يقول هذا الكلام؟ وهل رآني أفسد حياة أحد؟ أنا أربي له أولاده، وأفتح بيتي لكل من هب ودب من زملائه وهو غائب طوال اليوم، يقول مشغول.. وعندما يكون نائما في الفراش بجواري يهملني ولا يقربني إلا في المناسبات.. فمن الذي أفسد حياة من؟ ومجدي؟ لماذا يتصرف بهذا الشكل الأحمق؟ كان سلوكه سخيفا وعناده أسخف، فلماذا؟ وهل كان رقيقا معي لكي أعطيه البنت والآن بعد أن أعطيتها له يتملعن ويتحكم؟

لم نعاود الحديث في الموضوع، واعتبرت تعليقه تراجعا من جانب مجدي.. سنؤثث للبنت بيتا جديدا ولائقا، هذا ما قررته.

يطلب مجدي أن نعقد القران. قال: «مرت على الخطبة ستة شهور. صارت زينب تعرفني وصرت أعرفها وأعتقد أننا نريد الآن الزواج مرة وإلى الأبد!»، وضحك. وافق كمال فكتبنا الكتاب في حفل عائلي صغير، وعلق كمال بعد أن ذهب المأذون وآوينا إلى حجرتنا: «هكذا أفضل!». قلت: «الآن يخرجان ويدخلان ونحن مرتاحون لا يشغلنا أنهما تأخرا أو لم يتأخرا ولا تعترض أمي على كثرة لقاءاته بزينب. مجدي الآن زوج زينب على سنة الله ورسوله».

سأقيم لزينب حفل زفافها بالإسكندرية. قلت ذلك لكمال فاستغرب وسأل. «وما الحكمة؟». قلت: «ما دمنا قررنا أن يتم العرس في الصيف فلنقمه في الإسكندرية في قصر المنتزه»! لم يبد على كمال الحماس ولكنه لم يعترض. قال: «افعلي ما بدا لك».

سيكون فرح زينب ومجدي حديث الأهل والأصدقاء لشهور

وربما لسنوات.. نستأجر قاعة الأفراح بقصر المنتزه، حيث أعمدة المرمر وثريات الكريستال والأسقف المنقوشة بماء الذهب.. هناك في القصر، حيث كان يقيم ملوك مصر تزف ابنتي إلى مجدي في ثوب بلا مثيل، أشتري قماشه من فرنسا وتحيكه لها مدام لاورا.. تلبس الثوب الأبيض وتضع على رأسها إكليل الأزهار والطرحة وتزفها الراقصات على الدفوف وضوء المشاعل.. تمتد الموائد في البهو تحمل أطيب الطعام، وبعد العشاء يكون الحفل في حديقة القصر تحييه المغنيات والراقصات وتكون ليلة العمر يتصدرها مجدي وزينب، ويعرف الجميع أن خديجة عندما تنجز شيئا فهو دائما مدهش وبلا مثيل!

ولكن على زينب أن تتم عامها الأخير في المدرسة أولا، وهذا شرط أبيها.. أن تنتهي من امتحان الثانوية قبل الفرح. مجدي يساعدها في دروسها، مرات يأتي عندنا ومرات يأخذها إلى بيته. في الصباح تذهب إلى المدرسة وفي المساء تلتقي به.

زينب هذه الأيام شاحبة الوجه، مضطربة. لاحظت ذلك فسألتها عما بها. قالت: «لا شيء». قد تكون اختلفت مع مجدي. هكذا الأزواج دائما يسببون النكد للزوجات. لو قالت لي، لو كان الحق معها سأوبخه! يجب أن يعرف أن عليه مراعاة البنت، فأنا لم أعطها له ليغضبها ويتسبب في شحوب وجهها!

طلبت مني زينب أن نتحدث على انفراد. إذن قررت أن تحكي لي. دخلنا حجرة نومي وأغلقت الباب.

- هل أغضبك مجدي؟

- أبدا.. ولكن...

- ولكن ماذا؟

- أعتقد أني حامل!

للحظة دارت بي الأرض. استعدتها لعلي أسأت السمع أو الفهم، ولكنها كررت نفس الكلام. «كيف؟» ثم «كيف تجرؤين؟».. لم أتمالك نفسي، صفعتها، بصقت عليها، وصرخت في وجهها. كانت زينب تبكي بحرقة وعيناها في الأرض. مجدي هو الكلب، هو المسئول، وضعت فيه كل ثقتي وليس أهلا للثقة! ليس هذا وقت الانفعال لكنه وقت التصرف. اتصلت بمجدي في عمله. قلت إنني أريد أن أراه «في الحال!»، «خيرا، هل حدث مكروه؟». الكلب يتصرف بهدوء يفقد الإنسان عقله، جاء مجدي واجهته بالأمر.

- زينب حامل!

نظر إليّ نظرة غريبة..

- غير معقول!

- هل تنكر أنك عاشرتها معاشرة الأزواج؟

نظر إليّ نظرة غريبة، ثم ابتسم:

- ولكنها مفاجأة، فعلا.. اسمعي يا خديجة نحدد موعد الزفاف ونجعل من الفرحة فرحتين.

إنه حقير ومجنون.. ماذا أقول له؟ تمالكت نفسي:

- يا مجدي لقد أسأت التصرف وخنت الأمانة. لقد سمحت

لزينب بالذهاب معك إلى بيتك لأني أثق بك، ولكن لم يخطر ببالي قط أن تفعل ذلك!

- ربما كان يجب أن نكون أكثر حرصا، لكن هذا ما حدث. ليس في الأمر مصيبة على أي حال لأن زينب زوجتي على سنة الله ورسوله، والحمل في أيامه الأولى.. لنحدد موعد الزفاف!

- بهذه البساطة؟

- نعم بهذه البساطة؛ لأنه يا خديجة ما دام لك كل هذه المحاذير على علاقتنا فما كان يجب أن تسمحي لنا بالانفراد في بيت وحدنا لساعات طويلة.

- سمحت لأني كنت واثقة بأنكم لستم حيوانات.

- لسنا حيوانات يا خديجة ولكننا بشر!

قالها بحدة وكان وجهه شاحبا. صرخت فيه وصرخ فيّ.

- لا تزيديها يا خديجة! تصرفي بحكمة، حددي موعدا للزفاف، فلا تكون هناك مشكلة وإلا

- وإلا ماذا؟

- وإلا آخذ زينب، وهي زوجتي بالشرع والقانون!

- هكذا؟

- هكذا!

قالها وتركني وسمعت باب البيت يطرق.

مجدي خانني. تصورته أفضل شاب على وجه الأرض. أعطيته

ابنتي فخان الأمانة، وها هو ذا الآن يتصرف بصفاقة منقطعة النظير! فماذا حدث؟ هل كان سيئا طوال الوقت وكانت على عيني غشاوة، أم أنه تغير؟ هل كان يدعي الخلق الكريم حتى يأخذ البنت وحين ظفر بها ظهر على حقيقته؟ هل فعل ما فعل لأن الشيطان شاطر أم لأنه هو نفسه شيطان لا يؤمن له جانب؟ هل يريد أن يفضحنا وسط الناس؟ هل يكرهنا ويضمر لنا شرا؟ ربما فعل هذا كله لكي يضعنا أمام الأمر الواقع ونزوجه البنت بالطريقة التي يريدها بنفس أثاث بيته. وماذا عن حفل الزفاف في قصر المنتزه على شاطئ الإسكندرية؟ ماذا عن الأثاث المصنوع في دمياط صورة طبق الأصل من الأثاث السويدي في المجلات؟ والثوب الذي تخيطه مدام لاورا؟ كلها ضاعت كما ضاعت ثقتي في مجدي، مجدي الغالي كسعد يتصرف هكذا؟ هذا كثير، كثير جدا. كنت أبكي وأردد: «لماذا يا رب لم ترفع عن عيني الغشاوة فأرى مجدي على حقيقته قبل أن أزوج له البنت؟».

انتظرت عودة كمال، قلت وأنا أجلس بجواره:

- مجدي كان هنا اليوم وتخانقت معه!

رفع إليّ عينيه متسائلا..

- اتضح أنه نام مع البنت.

قطب حاجبيه مستاء:

- ومن قال ذلك؟

- زينب.

- كيف وأين ومتى؟

قلت متلعثمة:

- في بيته.

- وهل تذهب زينب إلى بيته؟

- نعم.

- دون علمك طبعا؟

- لا بعلمي، أحيانا أوصلها وأحيانا يأتي هو لأخذها.

- أي حماقة! أي حماقة!

كان كمال يضرب كفا بكف وكان وجهه احمر من شدة الغضب، ثم أخذ يوبخني ويقول إن ما حدث طبيعي ما دمت سمحت لهما أن يكونا معا فترات طويلة بالشقة بمفردهما.

قلت باحتجاج ممزوج بالقرف:

- ولكني لم أكن أظن أنهما كالحيوانات.

- كان يجب أن تفكري أنهما بشر!

غريب! كمال يحملني أنا المسئولية ويتحدث كأنه منحاز لمجدي، ولكنه غاضب يكظم غيظه. لم أجرؤ على أن أقول له إن البنت حامل، لم يبادلني حرفا بعد ذلك. دخل السرير وأدار لي ظهره ونام! أما أنا فلم أنم طوال الليل. في الصباح قال لي.

- تصرفي، اتفقي مع مجدي على الاستعدادات الضرورية لحفل الزفاف.. لا أريد أن أراه الآن، إنه زوج ابنتي ولا أريد أن أبدأ علاقتنا بإهانته.

غضبي من مجدي وزينب بلا حدود، ولكن ليس لديّ وقت للتفكير في مشاعري، فعليّ القيام بعشرات الأشياء استعدادا للعرس الذي حددت موعده بعد أسبوعين. عليّ أن أشتري وأوصي وأتفق وأعد. لا أتحدث مع مجدي إلا في التفاصيل العملية المطلوبة منه. أتحدث معه وأنا أحتفظ بالمسافة التي خلقها بتصرفه، مسافة عدم الثقة بعد الطعنة من الخلف. وزينب أيضا أعاملها بجفاء. لا أبتسم في وجهها. ولكني أتابع حالتها الصحية وأقدم لها النصح والتوجيهات حتى لا تسقط في حملها فتصبح الفضيحة فضيحتين!

قبل الزفاف بيومين طلب مجدي أن يتحدث معي.

- تفضل ماذا تريد؟

- أفضل أن نذهب إلى مكان هادئ خارج البيت.

أخذني بسيارته إلى مقهى أنيق بأحد الفنادق الكبيرة. قال:

- يا خديجة إن كنت أسأت إليك فأنا آسف. لم يخطر ببالي أبدا أن أتسبب يوما في إيلامك.

- ما حدث حدث والأسف لا ينفع.

- اسمعيني للنهاية. لقد تمنيت طول عمري أن أرتبط بكم. عندما كنت طفلا، كنت لا أكاد أغادر بيتكم وكانت جدتي تشتكي لأبي كلما كتبت له رسالة وتقول ابنك يقيم في بيت الجيران. كنت طفلا وحيدا يعيش في بيت جدته الوحيدة. وكنت أهرب من وحشة بيتنا إليكم لنلعب ونضحك ونتخانق. وعندما وجدتك فرحت كأني وجدت أهلي. وبارتباطي بزينب صرت فعلا كما تمنيت دائما واحدا منكم.. وتعرفين أنني أحبك، وأحب أحمد أخاك وأحب

سعد وسوسن، وأحب زينب، أحبها الآن مرتين، مرة لأنها زوجتي ومرة لأنك أمها.

يا خديجة أنا فرح بزينب وفرح بالطفل في بطنها. ربما أخطأت ولكن ما حدث حدث حبا. وها نحن أولاء نتداركه وبعد أيام نـزَفّ أنا وزينب. فلنسقط المرارة ونُنْه المشكلة ولنقل صافي يا لبن ونفرح بالفرح.

ومد لي مجدي يده عبر المائدة لكي يمسك بيدي، ولكني سحبت يدي قبل أن يلمسها..

أقمنا الفرح بالشكل المناسب في فندق كبير، زفة وراقصات ومشاعل وموائد ممتدة ومطربون، وبدت زينب في الثوب الأبيض والطرحة فاتنة. هكذا شهد الجميع كما شهدوا لي. «لا أحد يصدق أنك أم العروس يا خديجة»! يقولون ذلك فأضحك. كنت أم العروس الفاضية المشغولة ولكني لم أكن فرحة. كانت المرارة ساكنة في قلبي ومستتبة.

تمر الأيام يتكور بطن زينب وينتفخ. تقول أمي إن البنت ستلد ولدا لأن وجهها «تدور وابيض وأصبح مثل القمر»! زينب جميلة ولكن الحمل يجعلها أجمل رغم أنها تجهد نفسها في الاستعداد لامتحانات الثانوية العامة. تؤدي الامتحان وهي تلبس ملابس الحمل الفضفاضة وتلم شعرها في ذيل حصان خلف رأسها. تقول: «لا يضايقني إلا الحر».

اليوم تظهر النتيجة، أنتظر أن يتصل بي مجدي الذي ذهب للاطلاع عليها في المدرسة فيتصل بي كمال ويقول منشرحا إن زينب نجحت وحصلت على مجموع ٨٠٪. فرحت بالخبر ولكني تساءلت لماذا اتصل مجدي بكمال ولم يتصل بي أنا؟

بعد أسبوعين اتصل بي مجدي في ساعة متأخرة من الليل وأخبرني أن زينب جاءها المخاض، فأيقظت كمال وتوجهنا إلى المستشفى. تظن المرأة أنها تعرف ابنتها ثم تكتشف أن هناك جديدا لا تعرفه عنها. كانت المسكينة تكتم الصرخة، تبتلعها ابتلاعا، يتقلص وجهها وينضغط. أعرف شدة ما تعانيه من ألم من تشنج قبضتها على يدي، وأختنق بالرغبة في البكاء ولكني لا أبكي. يأخذونها إلى حجرة الولادة وأجلس في الانتظار وأرى كمال ومجدي شاحبي الوجه يروحان ويجيئان في اضطراب ظاهر الرجال أقوياء في الظاهر وفي المواقف الصعبة يتضح مدى هشاشتهم. أصيح فيهما: «لماذا لا تجلسان وتكفان عن هذه الحركة التي توتر الأعصاب؟».

ترقد زينب في فراشها ممتلئة رغم الإنهاك، وجميلة رغم شحوب وجهها. أتت الممرضة بالصغيرة في الأقمطة البيضاء والثوب الأبيض الطويل الذي اشتريته لها بنفسي. أنظر إليها: وجه صغير أحمر ومجعد وعينان لم تفتحهما بعد وشفتان رفيعتان وأنف منفوش وشعر أسود ناعم وكثيف يكاد يغطي جبينها.. «إنها ابنة زينب!». تمتمت وأنا أمد يدي لأحملها. أحطتها بذراعي تماما حتى التصق جسدها الصغير بجسدي، وللحظة لم أعرف إن كان ما أسمع هو دقات قلبي أم دقات قلب الصغيرة. أحسست بدفقة ما تربط جسدينا كأن بثديي حليبا يدر.

قال مجدي وهو يقف بجوار زينب ويمسك بيدها وهي راقدة في الفراش: «سنسمي الصغيرة خديجة!».

٨

أمي ماتت.. كانت قوية ومتماسكة ترعى أبي المريض وتؤنس شيخوخته فخطفها الموت وتركه ينزوي في أحد الأركان ينتحب. أنا أيضا أنتحب ولا أغفل عن تفاصيل ضرورية: «اكتبوا النعي للنشر في الجريدة»، «أبرقوا لأحمد في أمريكا وقولوا له إننا سنؤجل الجنازة إلى الغد لعله يستطيع الوصول قبلها»، «قولوا لزينب لا تأتي لأنها في النفاس ويخشى عليها»، «هاتوا سعد، إن لم يقف لجدته فلمن يقف؟».. أمي ممددة في سريرها الزان العتيق بحجرة نومها وبي رغبة في رؤيتها وتقبيل يديها ولكنني لا أجرؤ.. أبكي.. الموت حدأة تنقض وتخطف وتبعثر

ظهر اليوم التالي أخذوها وكان البيت يعج بالمعزيات. أتى الرجال وحملوها ووقفت في الشرفة أتابعهم وهم يضعون النعش في عربة نقل الموتى. أغلقوا الباب وأدار السائق المحرك. «أحمد لن يراها أبدا. سيأتي من غربته ليجد أنها ذهبت!». ساعتها لطمت وولولت حتى سقطت مغشيا عليّ.

النساء يقلن إني مؤمنة وإنها إرادة ربنا، وأنا أمسح دموعي في صمت، وصوت القارئ يتردد في البيت. نساء في الحداد يأتين،

ونساء في الحداد يذهبن.. ثم تنقضي أيام العزاء. «أبي ستأتي للإقامة معنا». يبكي ويقول إنه لا يريد أن يغادر البيت. «يا أبي، عليك أن تتصرف بالمنطق والعقل، كيف يقيم رجل في سنك وحده في بيت صار خاويا؟». يمتثل لكلامي وهو يبكي. نغلق البيت. أتكئ على ذراع سعد وتمسك سوسن بذراع جدها ويضع السائق الحقائب في الصندوق الخلفي للسيارة ونغادر.

خديجة الصغيرة نعمة أنعم الله عليّ بها، لولاها لكانت أيامي قاتمة لا تطاق. طقوس الحداد، الملابس السوداء، وفكرة الموت كسرب من الغربان يحوم وينعق. وأبي المسكين يضفي على أيامي الكئيبة كآبة. سقط في بئر فاستكان واستسلم وانزوى في القاع، لا يريد أن يطلع منه ليقضي في الحياة حاجات الحياة. أطعمه بنفسي وأحمِّيه وأغير له ملابسه وهو يتشبث بي كطفل أصابه الفزع. أحمد وصل بعد أربعة أيام من وفاة أمي وغادر بعد أسبوع من وصوله. ساعتها لازم أبي الفراش أياما يرفض تناول أي طعام حتى اضطر كمال لتغذيته بزجاجة «جلوكوز» معلقة إلى جواره موصولة بأنبوبة رفيعة تنتهي بإبرة مرشوقة في أحد أوردته.

والآن وقد تحسنت حالته وأصبح بمقدوره مغادرة فراشه ينادي عليّ بلا انقطاع. يجيبه سعد أو سوسن «نعم يا جدي، هل تريد شيئا؟» «أريد خديجة!». وقد يكون له طلب أو لا يكون ولكنه يريد خديجة ولا يطمئن إلا وهي جالسة بالقرب منه. وعندما أخرج يصبح همه الشاغل هو السؤال عني، أين ذهبت؟ متى تعود؟ وهل قالت إنها ستتأخر؟ لماذا تأخرت؟ تضج به سوسن. أما سعد فيسايره ويصبر عليه.

كان سعد طفلا هادئا ولطيفا وكبر وصار صبيا هادئا لطيفا، ألطف مما ينبغي. الأولاد في سنه يلعبون الكرة في النوادي ويذهبون إلى السينما وتشغلهم المصارعة والمغامرات، وقد يبدأ انشغالهم بالبنات، وهو لا يشغله إلا الرسم، وأنا أقول له إن عليه أن يهتم بدراسته وليس بالرسم لأنه سيكون طبيبا فيجيب: «حاضر يا ماما». هذا الولد لا يخذلني أبدا، مهذب ومطواع. ليته يطبع أخته بشيء من وداعته. هذه الهوجاء صاخبة وعنيدة ولا تترك أمرا يمر بهدوء. تناقش وتختلف وتحتج وتعترض دائما بحدة. لو كان سعد كسوسن وسوسن كسعد لبدت الأمور أقرب إلى المنطق ولكن لا منطق في شيء.

وهل كان منطقيا أن تتدهور علاقتي بمجدي حين أرتبط به برباط الدم فأزوجه ابنتي وأصبح جدة لابنته؟ لم يعد كما كان، لا يأتي لأستمع إليه ويستمع إليّ، لا يسر لي بشيء، لم يعد صديقا بل مجرد نسيب. خدوم ومهذب صحيح ولكنه بعيد، أبعد بكثير مما كان قبل أن يتزوج البنت، فهل كان يقترب منا ليأخذها؟ أم أنه حين تزوج وجد من ينصت له فلم يعد بحاجة إليّ؟ هل ابتعد لأنني قسوت عليه عندما عرفت بحمل زينب؟ قد أكون أغضبته ولكنه جرحني وأنا أكثر الناس ثقة به، ثم جاء يريد أن تعود المياه إلى مجاريها فكيف؟

لا منطق في شيء، والأيام لا تأتي إلا بخيبة الأمل، وأحمد أخي الذي انتظرت عودته سنوات جاء وذهب تاركا لي إحساسا بالخذلان وعدم الفهم. وجدت أمامي رجلا مترهلا في منتصف العمر، هو أحمد وليس أحمد، يؤكد ذلك لسانه المختلف وأسلوبه في التفكير والسلوك، وحتى ملابسه العجيبة ـ رابطة عنق لا تناسب القميص،

وقميص لا يوافق السترة، وحذاء مطاط يركب به الطائرة ليسافر من قارة إلى قارة.. وبدا لي كأنه قادم ليس من أمريكا بل من الأدغال، ورغم ذلك تعلق الأولاد به. قال سعد إنه لطيف، وأعجبت به سوسن إعجابا شديدا. لم أعلق لأنه من غير اللائق أن أنتقد أخي أمامهم. ولكني فكرت أن الطيور على أشكالها تقع، وأن أخي مجنون وابنتي مجنونة وربنا يستر! جاء أحمد وذهب وبكيت عند استقباله في المطار وبكيت أكثر عند وداعه.

البيت كئيب ولولا خديجة الصغيرة لأصابني انهيار عصبي. أذهب كل صباح إلى زينب.. «أي صباح جميل هذا الذي يصطبح الإنسان فيه بهذا الوجه!». جميلة وأميرة وتملأ القلب بالبشر. أحملها من مهدها واخلع عنها ملابسها وأحممها وأرش جسمها ببودرة التلك الناعمة ثم ألفها بالأقمطة وألبسها ثوبا أبيض جميلا وأعطيها لأمها لترضعها.

خديجة بلسم وهدية. أتأملها فتملأ قلبي بالرضا وأنسى كل الأوجاع. هدية صغيرة. تكبر وتجلس. تحبو وتنبت لها أسنان. أحب أن أحملها بين يدي، وأحب أن أشتري لها ملابس ولعبا وحليا: أسورة صغيرة من الذهب، حلقا من اللؤلؤ، مشبكا يحمل آية الكرسي محفورة على رقيقة من البلاتين. أحب أن أشتري لخديجة لأني أحبها ولأنها أميرة يجب أن تلبس ما يليق.

٩

حصلت سوسن على الشهادة الثانوية، تريد أن تلتحق بالجامعة وأنا لا أريد، أخشى أن تفلت البنت من يدي نهائيا. عمتي كريمة طلبتها لأصغر أبنائها وهو شاب ممتاز ويعمل مهندسا ولا يكبر البنت إلا بسبع سنين. قلت لكمال فقال: «ما دامت البنت تريد إكمال دراستها فدعيها». قلت: «ولكنها عنيدة ومتهورة وقد نندم في المستقبل.. من الأفضل أن نزوجها». قال: «اتركيها وشأنها».

يوم من أيام شهر سبتمبر مخنوق وقائظ. عادت سوسن إلى البيت مندفعة كالعاصفة وانهالت عليّ تقبيلا وأخبرتني أنها قرأت اسمها في كشوف المقبولين.. «وستكون ابنتك محامية قد الدنيا لا تترافع في قضية خاسرة!». فقلت لها إنه من الأجدى أن تدخل لتستحم لأن رائحتها لا تطاق. كان وجهها وشعرها وملابسها مبللين بالعرق.

كانت سوسن تحسب الأيام في انتظار بداية العام الدراسي عندما مات جمال عبد الناصر. اتصل بنا مجدي بالتليفون وأبلغنا بالخبر. فتحنا التلفزيون. كان القارئ يتلو آيات من القرآن الكريم. فتحنا الراديو فوجدنا نفس الشيء.. ثم أذاعوا النبأ. لا أحب عبد الناصر ولا أنا معجبة به، أبي يكرهه ويقول إنه خرب البلد، والدكتور سالم

يقول إنه أطلق الغوغاء علينا وأثار الحقد في نفوسهم وقال لهم لكم حقوق ونسي أن يقول إن عليهم واجبات. كمال لا يكرهه بنفس القدر ولكنه لا يثق به.

قلت الخبر لأبي. قال:

- ماذا تقولين؟

فكررت بصوت أعلى.

- عبد الناصر مات.

- من؟

- عبد الناصر.

- قتلوه؟

- لا، مات.

- وهل أرسلوا في طلب أحمد فؤاد.

- أحمد فؤاد؟

- ولي العهد.

فضحكت ولكني كنت مرتبكة وربما حتى خائفة. فما الذي يحدث الآن؟

- سوسن، ما هذا؟

صرخت فيها وأنا لا أكاد أصدق عيني. هذه البنت مجنونة وستجننا معها. استبدلت بثوبها ثوبا أسود. طلبت منها أن تخلع هذه الملابس «فورا».. لكنها لم تستجب.

يتوافد على مصر رؤساء الدول المختلفة بعضهم يتحدث في التلفزيون ينعي عبد الناصر، نشاهدهم كما نشاهد جنازته في التلفزيون ولا نستطيع أن نمنع دموعنا ونحن نرى الشوارع تغص بالناس يتخاطفون النعش. النعش يطير فوق رءوسهم يختفي منهم ويتوارى ثم يظهر فوق أعناقهم. أنا وزينب نبكي وسعد يغالب دموعه. أما سوسن فلا أفهمها. تجلس بملابس الحداد صامتة جامدة الوجه كأنها تحولت إلى حجر

أصرت سوسن على أن تلبس أسود أربعين يوما. حاولت أن أثنيها ولم أفلح فقررت أنها مجنونة وتركتها كما نصح أبوها كلما أطلب منه أن يعاونني في تربيتها. كلما شكوتها له قال: «اتركيها» ولو أفلتت البنت نهائيا؟ يكون هو المسئول.

تنقضي الأيام والشهور مقفرة وكئيبة. أبي يجلس أمام التلفزيون يهذي بذكريات مكررة. كمال غائب في عمله. وسوسن وسعد منهمكان في دروسهما أكاد لا أراهما. لولا خديجة الصغيرة لأغرقتني الوحشة. إنها وردة وهبها الله لي. تسميني ماما. أحب أن تقيم معي. مجدي وزينب يتركانها معي أياما ثم يأتيان ويأخذانها.. يملؤني الضيق وما أن يصبح الصبح حتى أذهب لرؤيتها. خديجة وردة، وردتي.

ذهبت سوسن لتأتي بنتيجة الامتحانات وعادت. عندما دقت الباب ودخلت عرفت أن شيئا ما ليس على ما يرام.

- ماذا حدث؟

- رسبت في ثلاث مواد.

- كيف؟

- لا أدري؟

- لعل في النتيجة خطأ.

- هل يذهب أبوك للعميد لكي يراجعوا أوراقك؟

- لا

- ألم تحضري هذه الامتحانات؟

- حضرتها.

- إذن كيف رسبت؟

- ربما لم أستذكر بالشكل الكافي.

لم أصدقها. فهي تجلس على مكتبها بالساعات، وهي ذكية ولم ترسب في حياتها. في الليل قلت لأبيها فتحدث معها في حجرتها ثم قال لي: «يبدو أن البنت كانت تقضي معظم وقتها في قراءة كتب لا علاقة لها بالدراسة». «كيف، ماذا كانت تقرأ إذن؟». قال: «لم أسألها».

كان أول ما فعلته في الصباح هو سؤالها:

- ماذا كنت تقرأين؟

- الآن؟

- ماذا كنت تقرأين بدلا من الكتب المقررة؟

- كتب.

- أعرف أنها كتب، في أي موضوع؟

- في التاريخ، في الاقتصاد، في السياسة.

- اسمعي يا سوسن لو كنت أعرف أنك سترسبين لما أدخلتك الجامعة. وإن كانت المسألة هي قراءة كتب للتسلية فيمكنك عمل ذلك في البيت.

- ولكن يا ماما..

- اسمعيني جيدا. إن لم تتفوقي في دراستك، لا أقول إن لم تنجحي، أقول إن لم تنجحي وبتفوق سأبقيك في البيت.

لا أدري ما الذي يحدث للأولاد حين يكبرون. إنهم يخيبون. رسبت سوسن، أما سعد فيقضي معظم الوقت في الرسم وعمل تلك التماثيل الطينية الصغيرة التي حولت حجرته إلى مزبلة. أدفعه للمذاكرة دفعا. أقول له ستكون طبيبا والطبيب لا يبدد وقته فيما لا طائل وراءه.. فيقول يا أمي دعيني أكمل ما بدأت فأتمكن من التركيز في الدروس. فكيف أتركه، وإكمال ما في يده قد يستغرقه الليل بطوله؟ لولا خديجة الصغيرة لانفجرت ضيقا.

بدأ العام الدراسي الجديد وأبقيت عيني مفتوحتين. أراقب سوسن وسعد لأتأكد أنهما يدرسان. أجلستهما أمامي في أول أيام الدراسة وقلت لهما بوضوح إنني لن أسمح بأي إهمال في الدراسة «كتب خارجية، رسم، تماثيل، كلها ممنوعة. عندما تنتهي السنة الدراسية افعلا ما تريدان. الآن تدرسان وفقط!». سعد يحدق في قدميه ولا يرفع رأسه. سوسن لا يعجبها كلامي، أعرف هذا من نظرة عينيها ولكنها لا تجرؤ على فتح فمها.

أحب أن أفاجئ الأولاد أثناء الدراسة لأتأكد. فتحت الباب على سوسن فوجدتها جاثية على ركبتيها منحنية على ورقة بيضاء كبيرة مبسوطة أمامها على الأرض، وكانت تكتب ببطء وعناية بقلم أسود.

- ماذا تفعلين؟

- كما ترين، أكتب.

- ولماذا على هذه الورقة الكبيرة؟

- إنها مجلة حائط.

- طلبها أحد الأساتذة؟

- لا، ولكنها جزء من نشاط الأسرة.

- دعيني أرى.

أخذت المجلة وبسطتها أمامي على المكتب. كان اسم المجلة «الشعلة» وبها مقالات ورسوم كاريكاتورية. مقال بعنوان: «الجامعة المطوقة» وآخر عنوانه «قطط سمان تحكم وفئران تحمل القلم» ومقالات أخرى لم أتحمل قراءتها. كان الأمر صادما بما لا يحتمل. أخذت أمزق المجلة. صرخت سوسن: «ماما ماذا تفعلين؟ هذه المجلة ليست ملكي.. ثم إنها...» «اخرسي!». قلت وأنا أصفعها على وجهها: «اخرسي تماما! لقد تعبت من الكلام معك!». وعندما عاد كمال من عمله أخبرته بكل شيء، حكيت له بالتفصيل عن المقالات التي تهاجم الحكومة والرسوم الكاريكاتورية التي تسخر من الجميع، حتى مدير الجامعة يسخرون منه.. تصور؟

نادى على سوسن وراح يتحدث معها بهدوء مثير للأعصاب، كنت أغلي غيظا، أكاد أنفجر قال كمال:

- سوسن نحن أسرة لا علاقة لنا بالسياسة، تريدين خدمة البلد؟ شيء جميل ونبيل، ولكن ما دخل السياسة في الموضوع؟ إنك تهاجمين الحكومة ولن تجني من وراء ذلك سوى السجن والبهدلة. وأنتِ بنت ونحن أسرة محترمة وأنا طبيب أخدم بلدي في مجال تخصصي. تريدين أن تخدمي بلدك اهتمي بدروسك وكوني محامية ماهرة وليس هناك خدمة أفضل ولا أجل. وبالمناسبة لو لم ترسبي العام الماضي لوفرت على نفسك نصف هذا الكلام.

طأطأت رأسها وقالت:

- لقد أخطأت برسوبي وأعدك ألا يتكرر الخطأ.

- أريدك أن تعديني ألا تتدخلي في المسائل السياسية.

- ولكن...

- أريد وعدا!

تدخلت أنا في الحديث:

- إن لم تعدي بابا الآن فلن أسمح لكِ بالذهاب إلى الجامعة.

-ولكن يا ماما...

قاطعتها:

- اختاري.

- ولكن...

- اختاري ولا مجال للنقاش!

- أريد الذهاب إلى الجامعة.

قلت:

- إذن هذا وعد منكِ بألا تكون لك علاقة لا بالسياسة ولا بمن يعملون بها من طلاب.

- ولكن هذا ظلم.. ليس هكذا تفرض على المرء الاختيارات.

قالتها في حدة وهي تغادر إلى حجرتها، فقلت لكمال إن سوسن مجنونة ولن توصل الأمور إلى بر الأمان. سوسن نقيض سعد. هو لطيف ويسمع الكلام أما هي فمتمردة تحتاج لجاما لكي لا تفلت.

أثناء السنة الدراسية أكاد لا أغادر البيت لأشرف على دراسة سوسن وسعد، وحتى في الإجازة لا أخرج إلا قليلا لأن أبي صار متعلقا بي كطفل صغير. إن دخلت دورة المياه يسأل أين ذهبت. إن تحدثت في التليفون يحلو له أن يطلب مني قضاء حاجاته. حتى زينب حامل للمرة الثانية. أريد أن تلد ولدا ومجدي أيضا يريد ذلك وهي تضحك وتقول: «ما يأتي به ربنا خير». زينب طيبة فلماذا جاءت سوسن مختلفة إلى هذا الحد؟

سعد عاد متهللا بخبر نجاحه في الثانوية العامة وعرفت قبل أن ينطق. كان وجهه مشرقا وعيناه ضاحكتين.. قلت وأنا أحتضنه:

- مبروك يا سعد.

- الله يبارك فيكِ يا ماما.

- والمجموع؟

- ٧٢٪.

وجمت، كيف يدخل كلية الطب بهذا المجموع؟

- ولكنك قلت لي إنك أجبت عن الامتحانات بشكل جيد.

- نعم.

- كيف إذن حصلت على هذا المجموع؟

- ولكن ٧٢٪ مجموع جيد يا أمي، وسيمكنني من دخول الجامعة.

- لن يمكنك من دخول كلية الطب.

تلعثم سعد واحمر وجهه. قال:

- اسمعي يا أمي دعيني أقول لك الحقيقة بلا لف ولا دوران: لا أرغب في دخول كلية الطب!

ماذا يريد هذا الولد؟ لا أفهم. هل يمزح معي؟ هل يلعب بي؟

- لا تقل هذا الكلام يا سعد، أعرف أنك اجتهدت ولم تحصل على المجموع المناسب، ولكن بإمكانك أن تعيد السنة وتدخل كلية الطب.

- لن أعيد السنة لسبب بسيط هو أن مجموعي يسمح لي بدخول كلية الفنون الجميلة، وهي ما أريده.

الولد يقول هذا الكلام لأنه لا يريد إعادة السنة ولكنها لحظة يأس عابرة.

- اسمع يا سعد، سنة واحدة إضافية ليس لها قيمة بالمقارنة بمستقبلك كله. ستكون طبيبًا. أعد السنة وكن طبيبًا.

- ولكني لا أريد أن أكون طبيبًا.

قالها بحدة وهو يدب بقدمه على الأرض. ساعتها انفجرت باكية. الأولاد يريدون القضاء عليّ. إنهم ناكرون للمعروف، كل هذا الجهد وهم لا يفكرون إلا في أنفسهم. حاول سعد أن يطيب خاطري ولكني دفعت به بعيدا وقلت له إنه ولد عاق وجاحد «اتركوني وحدي، لا أريد منكم شيئا». دخلت حجرتي وصفقت الباب وبقيت أبكي حتى عاد كمال.

- هل رسب سعد؟

- حصل على ٧٢٪.

- هل صدمته النتيجة؟

- لم تصدمه. صدمني كلامه.. فهو يقول إنه يريد دخول كلية الفنون الجميلة.

ذهب كمال ليرى سعد ثم عاد وقال:

- اغسلي وجهك وتعالي لنتناول الغداء.

- هل تحدثت معه؟

- تحدثت.

- وماذا قال؟

- قال إنه يريد دخول كلية الفنون الجميلة.

- وماذا قلت؟

- لم أقل شيئا.

فواصلت البكاء وقلت إنني لست جائعة.

بقيت أبكي اليوم بطوله. وفي الليل أعطاني كمال مهدئا فنمت. وفي اليوم التالي اعتكفت في حجرتي. لثلاثة أيام لم أبادل سعد حرفا. كنت أفكر أنه خذلني وهو الذي عشت أعوِّل عليه وأبني الآمال، فما الذي يبقى لي؟ زينب مشغولة بزوجها، وسوسن مجنونة لا يمكن الاعتماد عليها، وها هو ذا سعد يخذلني. أحمل وألد وأربي وأكبِّر ولا أفعل سوى الاهتمام بأمرهم، كل الساعات وكل الأيام وكل السنين من أجلهم ثم يخذلونني! أبكي.

سعد يدق الباب ويدخل. أقول له أن يذهب لأني لا أرغب في رؤيته، ولكنه يقترب مني والدموع تبلل عينيه: «لا تغضبي يا أمي. سأفعل ما يرضيكِ، سأعيد السنة».

١٠

قال مجدي:

- قبل أيام عرض عليّ السفر إلى ألمانيا في منحة تدريبية لمدة سنة.

- وهل وافقت؟

- وافقت.

- لا تقلق على زينب وخديجة. سافر أنت بالسلامة وهما تنتقلان للإقامة معي.

- ولكني سآخذهما معي.

- كيف؟

- هذا ما قررته!

أمره غريب! قبل أن يتزوج كان يستشيرني في كل صغيرة وكبيرة والآن يقول هذا ما قررته. هكذا ببساطة وكأن الأمر لا يتعلق بي أنا أيضا، ألن يأخذ ابنتي وحفيدتي؟

- ولكن زينب حامل ومن الأفضل أن تكون في رعايتي أثناء الولادة وبعدها.

ضحك:

- لا تقلقي يا خديجة. يوجد في ألمانيا أطباء ومستشفيات أيضا.

نظرت لزينب لعلها تقول شيئا، ولكنها لم تقل. من الواضح أنها تريد مصاحبته.

- هذا شأنكما، سافرا إن أردتما ولكن اتركا لي خديجة.

ضحك مجدي ثانية:

- هذا هو المستحيل بعينه. لا أنا ولا زينب يمكننا الاستغناء عنها.

وأنا؟ هذا ما لا يفكران فيه. ركبني الغم ولم أقل شيئا. مجدي قلبه أسود. إنه يكرهني ويريد الانتقام مني. أخذ مني زينب والآن يأخذ خديجة. لم أنم طوال الليل، وفي الصباح سألني كمال إن كنت مريضة. قال: «وجهك أصفر». نظرت في المرآة. كان كلامه صحيحا.

قلت لنفسي هما لا يهتمان بي فلماذا أهتم أنا؟ سأواجه القسوة بالقسوة. كررت ذلك لنفسي عشرات المرات ولكني عندما ودعتهم في المطار بكيت وعندما عدت إلى البيت بكيت أكثر. ستلد زينب في الغربة، فمن يقف بجوارها ساعة الألم؟ من يمسك بيدها ساعة تقصم الطلقة ظهرها؟ وخديجة هل تنساني؟ مجدي قلبه أسود لا ينسى أبدا أنني أسأت إليه يوما.. ولكني لم أسئ، هو الذي أساء ويسيئ.

نقلنا أبي إلى المستشفى. إنه يحتضر. أعرف ذلك من حالته وعيون الأطباء. دخل في غيبوبة ولم يعد يتعرف على أحد ثم مات. هذه أسوأ سنة مرت عليّ في حياتي. ليس صحيحا أن أبي كان يزيد من كآبة

البيت. غاب فأصبح البيت أكثر كآبة. لا أجد ما أفعله بنفسي. كمال غائب طوال اليوم، وسوسن وسعد يقدمان امتحانات آخر العام، كل يستذكر دروسه في حجرته خلف باب مغلق. يمر اليوم بطيئا وموحشا وأنا أدخن بلا انقطاع وأسرف في الأكل بشكل أستغربه، وفي الليل أنام بشكل متقطع وتداهمني الكوابيس. النهار كئيب ولا يمر، والليل مفزع وأنا أختنق.

استيقظت من نومي يلفني شعور ناعم ودافئ..ماذا حدث؟ شيء ناعم كملمس غطاء صوفي في صباح يوم شتائي أو كجسد خديجة الصغيرة بعد ولادتها.. إنه طفل نائم بين ذراعي، هذا هو ما رأيت.

كنت أحمل طفلا صغيرا له وجه وردي مدور وشعر أسود كثيف. وجه الوليد يلاصق ثديي.. أشعر بأنفاسه الدافئة وفمه المستدير يخفي حلمة الثدي السوداء وأشعر بالحليب يفيض.

لفني الحلم طوال النهار، وانتظرت عودة كمال كي أحكي له. وعندما عاد قلت: «لقد رأيت حلما جميلا الليلة». قال: «خيرا؟» فحكيت. ضحك وقال: «زينب حامل وعما قريب تحملين بين يديك ابنها». قلت: «ولكنها رؤيا». فلم يستوقفه كلامي. «ولكنها رؤيا» كررت لنفسي. ولو تركت نفسي بلا موانع أحمل ويأتيني الطفل الذي حلمت به. شغلني الأمر لأيام.. ثم حدثت كمال فاستغرب، ثم استنكر ورفض بشكل قاطع أن ننجب طفلا، فجرحني وأفسد فرحتي.

الأيام تمر بطيئة وبلا معنى، لا أجد ما أفعله أو ما يثير الاهتمام، أستيقظ من نومي متأخرة في الغالب، أشرب الشاي ولا أفطر في محاولة لإنقاص وزني الذي زاد في الشهور الأخيرة بشكل ملحوظ،

أذهب إلى مصفف الشعر مرتين في الأسبوع، وأحيانا أذهب إلى النادي حيث ألتقي ببعض المعارف، أستمع إلى ثرثرتهن بقدر قليل من الاهتمام.

على مائدة الغداء في يوم جمعة قال سعد إنه يريد أن يسافر إلى أوروبا في الإجازة الصيفية وكان يوجه كلامه إلى أبيه. قال أبوه: «سافر وخذ معك أمك وأختك واذهبوا إلى زينب في ألمانيا لتطمئنوا عليها وعلى خديجة الصغيرة وكريم».. وكانت زينب قد وضعت قبل أيام وليدا أسمته كريم. تلعثم سعد واحمر وجهه ثم قال وهو ينظر إلى الصحن الذي أمامه: «آخذ سوسن وماما إلى زينب في ألمانيا وأتركهما هناك وأواصل رحلتي، أريد أن أذهب إلى إيطاليا وفرنسا لمشاهدة الآثار الفنية». سعد يريد السفر وحده. سأسمح له بالسفر. سيصبح طبيبا ولا بد أن يسافر ويعرف ويجرب فيبهر الآخرين بمعارفه ومشاهداته. قلت: «اجتهد في دروسك يا سعد وما أن تنتهي الامتحانات حتى تسافر». قالت سوسن: «وأنا؟» قلت: «أنا وأنتِ نسافر معا في فرصة أخرى». سوسن مجنونة وسعد لا يستطيع لجمها والسيطرة عليها. لا بد أن أكون معها.

بعد الامتحانات سافر سعد. تأتيني منه بطاقات بريدية «ماما أنا بخير. وصلت اليوم إلى روما ولا أدري متى أغادرها. سلامي إلى بابا وسوسن. قبلاتي». كلمات خاطفة برقية يكتبها لي على عجل. ولكنه يكتب لسوسن رسائل طويلة، ويحملها ساعي البريد فأعرف من الخط المنمنم الجميل على الظرف أنها منه. «ماذا يقول سعد يا سوسن؟» تهز كتفيها: «يقول إنه مبسوط» ولا تزيد.

اليوم وصلتني من سعد رسالة. قلت لنفسي قبل أن أقرأها ظلمت الولد. قلت إنه لا يهتم بأمري ولا يعنيه حتى أن يحكي لي أخباره ببعض التفصيل وها هو ذا يكتب لي رسالة. بدأت أقرأ:

ماما الحبيبة

أكتب لك من باريس التي وصلتها منذ أسبوع. فكرت طويلا قبل أن أقول لك ما سأقوله، فكرت أن أطلب من سوسن أن تحدثك في الموضوع ثم عدلت. سأحاول أن أكون مباشرا وشجاعا في طرح الأمر وحاولي أن تتحلي بالصبر وأن تفهميني.

قبلت أن أعيد السنة فقط لكي ترضي عني ولكي لا تقولي لم يدخل سعد كلية الطب لأنه لم ينجح في الحصول على درجات تؤهله لذلك. فكرت في ذلك كله، وفكرت فيه كثيرا وطويلا. أعدت السنة رغم عدم رغبتي في إعادتها. أعدتها من أجلك، فقط من أجلك. وبعد أيام ستظهر النتيجة، والأرجح أنني سأحصل على المجموع الذي يؤهلني لدخول كلية الطب - وقد لا أحصل عليه - ولكني يا ماما في الحالتين لن أدخل كلية الطب.. هذا ما قررته. فلست مهتما ولا راغبا في أن أكون طبيبا. أريد أن أدرس الرسم والتصوير لأني أرغب في ذلك فعلا وأحبه وأرى فيه مستقبلي وإمكانية نجاحي. لو يقبل أبي الإنفاق على دراستي هنا أكون سعيدا وممتنا بلا حدود، وإن لم يقبل أعود إلى القاهرة لألتحق بكلية الفنون وآتي للدراسة هنا في المستقبل عندما تتيسر الإمكانية.

لا تغضبي يا ماما، لا تقولي سعد ولد عاق، فكري فقط أنك تريدين لي دراسة ما لا أهتم به وأنني أريد دراسة ما أحبه، ربما لو فكرت في ذلك تغيرين رأيك.

أحبك وأحترمك وأفتقدك وأرسل لك ولبابا وسوسن سلامي وقبلاتي..

سعد

أعدت قراءة الرسالة وأنا أضغط على أسناني غيظا. إذن أعاد السنة ليرضيني! إنه طفل ولا بد من معاملته كالأطفال. وضعت في حقيبتي رزمة من الأوراق المالية وجواز سفري ونزلت إلى شركة الطيران الفرنسية واشتريت تذكرة طائرة ذهابا وعودة واستفسرت عن مكان القنصلية الفرنسية واتجهت إليها للحصول على تأشيرة دخول إلى فرنسا.

قلت للموظف: «أريد تأشيرة لأسبوع واحد فقط».

صباح اليوم التالي ودعني كمال في المطار ونصحني بمشاهدة معالم باريس والاستمتاع بوقتي فيها. واستغربت كلامه وهدوءه، فهل أنا ذاهبة لقضاء إجازة؟ أنا في طريقي لإنقاذ الولد. يريد أن يكون فنانا. يا فرحة قلبي بالفن والفنانين! لقد فقد الولد عقله. كانت رسالة سعد في حقيبتي تحمل عنوانه وأنا في مقعدي أنتظر أن تهبط بي الطائرة في مطار أورلي. سأستقل سيارة أجرة من المطار إلى العنوان فأجد سعد وأعيده معي إلى القاهرة، في نفس اليوم إن أمكن.

هبطت الطائرة وختم لي الموظف الفرنسي الجواز. تسلمت حقيبتي وغادرت المطار وركبت سيارة أجرة وأشرت للسائق بالعنوان المكتوب على الظرف. الطريق من المطار إلى المدينة طويل كأنه بلا نهاية. وبعد الحركة المنسابة في الطريق السريع دخلنا إلى قلب المدينة

حيث الزحام والمرور البطيء. توقفنا مرات عديدة أمام الشارات الضوئية الحمراء. وأخيرا أنزلني السائق في شارع مزدحم بالمحلات التجارية وأكشاك الجرائد والمارة، وأشار بيده في اتجاه أحد الأزقة ففهمت أن العنوان هناك.

فقد سعد عقله! يقول لا أريد دخول كلية الطب ويسكن في باريس، مدينة الحضارة والنور، في حي كحي الموسكي! البضائع تحتل الأرصفة تكاد لا تترك مكانا للمارة، أحذية، كتب، جرائد، ملابس، صور. دخلت الزقاق الذي أشار إليه السائق، كان مبلطا بحجارة مستطيلة صغيرة الحجم وعلى الجانبين مطاعم صغيرة تعرض في واجهتها الزجاجية محاشي وأسماكا ومأكولات بحرية. سألت أحد المارة عن العنوان فأشار إلى عطفة إلى اليمين، دخلتها فوجدت رقم الفندق. فندق؟ إنه خن دجاج وليس فندقا: مدخل معتم صغير به عارضة خشبية تقف خلفها امرأة بدينة بيضاء شعرها الأسود المجعد مفروق من المنتصف وعيناها سوداوان.

سألت عن سعد فقالت إنه غير موجود. «متى يعود؟» «لا أعرف». وعندما قلت لها إنني أمه ابتسمت المرأة ابتسامة عريضة فبانت سنة ذهبية في فمها وقالت وهي تمد يدها للسلام عليّ إنها جزائرية وإن اسمها رشيدة، وكانت تتحدث الفرنسية مطعمة بكلمات عربية. خرجت من وراء الحاجز الخشبي وسلمت عليّ مرة أخرى وقالت إن سعد ولد لطيف وإنه لا يتأخر في الليل. «ربما يعود بعد ساعة أو ساعتين».

أجلستني رشيدة فيما أسمته «صالونا» والذي لم يكن سوى ثلاثة مقاعد قديمة اهترأ قماشها وبلي حتى لم يعد ممكنا تحديد لونها

الأصلي. ثم أتت لي بفنجان شاي وهي تقول إنها تحب أغاني أم كلثوم وإن أخاها عبد الكريم سمى ابنها جمالا على اسم جمال عبد الناصر وضحكت فبانت سنتها الذهبية ثم سألتني إن كنت أريد غرفة بالفندق فقلت إنني لا أريد، فاستأذنت قائلة إن عليها بعض الأشغال.

جلست في انتظار سعد في المكان المعتم الذي أسمته المرأة الجزائرية «الصالون». ما أن يأتي سعد حتى آخذه إلى فندق آخر يليق بالبشر! رأيت المرأة الجزائرية تتحدث مع شاب آسيوي ثم تخرج من وراء العارضة الخشبية ويحل هو محلها. حيتني وذهبت قائلة: «لا تقلقي، لن يتأخر سعد، إلى اللقاء غدا». تابعت حركتها الثقيلة وردفيها الممتلئين وثوبها القطني الرخيص وهي تغادر. نظرت إلى حيث كانت تقف فالتقت عيناي بالشاب الآسيوي الذي ابتسم ابتسامة عريضة بلا داع.

كدت أغفو وأنا جالسة أنتظر، وربما غفوت.. وصحوت على صوت سعد يهتف: «ماما، غير معقول!». قال إنها مفاجأة.

- لماذا لم تقولي لأنتظرك بالمطار؟

- احزم أمتعتك لنذهب إلى فندق.

- ولكن هذا فندق ـ توقف ـ لا يناسبك أليس كذلك؟ على أي حال اقضي الليلة هنا معي وفي الصباح نبحث عن فندق آخر.

- الآن سنذهب! احزم أمتعتك وقل لهذا الآسيوي أن يبحث لنا عن مكان في فندق من فنادق الدرجة الأولى.

- ولكن...

- سعد، إنني أنتظرك منذ ثلاث ساعات. لا أريد أن أنتظر أكثر!

كنت مرهقة وحادة المزاج. تحدث سعد مع الشاب الآسيوي ثم صعد ليأتي بحقيبته.

ركبنا سيارة أجرة إلى فندق بالشانزلزيه على مقربة من قوس النصر. كان الفندق ذا طراز عتيق سقفه عالٍ تتدلى منه ثريات الكريستال الضخمة. أعطى موظف الاستقبال مفتاح الحجرة لشاب أسمر حمل حقيبتينا واستدعى المصعد فتبعناه. توقفنا في الطابق الثالث. أدار الشاب المفتاح في الباب فانفتح على غرفة فسيحة بها سريران. وضع الحقيبتين وقال: «تصبحان على خير». وذهب.

قلت لسعد: «الآن سأنام لأني متعبة وفي الصباح نتحدث». قال: «لم تأكلي شيئا يا ماما، ألست جائعة؟» قلت إنني لست جائعة ودخلت الحمام وخلعت ملابسي وفتحت الماء لأتحمم.

عدت بسعد إلى القاهرة وقال كمال: «هذه أقصر زيارة إلى باريس سمعت بها». ولم أكن تغيبت سوى ٢٩ ساعة. قلت: «لم تكن زيارة إلى باريس. كانت مهمة لإنقاذ الولد. سعد سيكون طبيبا.. أفهمته ذلك، ولا مجال لعبث الأطفال!».

١١

سننشئ مستشفى خاصا، ننشئه على قطعة أرض كنا اشتريناها قبل عدة سنوات لنقيم عليها بيتا بحديقة ولم نفعل. مساحة الأرض مناسبة وموقعها ممتاز، فهي تطل على النيل في الطريق إلى المعادي. سافر كمال إلى المنيا حيث يملك أرضا زراعية وباعها وعاد بحقيبة جلدية صفت فيها الأوراق النقدية رزما، كل رزمة منها مربوطة بأستك. قال: «مات عبد الناصر واستقرت أحوال البلاد الاقتصادية وأصبح بإمكاننا أن نبدأ».

حديث المستشفى موضوعنا اليومي، ما تم وما سوف يتم.

اتفق كمال مع شركة مقاولات لمعاينة الأرض ووضع التصميم الهندسي المناسب. مستشفى كبير من عشرة طوابق مزود بأجهزة حديثة وأطباء مهرة وممرضات متمكنات وحديقة بها أزهار ومقاعد خشبية مطلية بألوان زاهية. هذا ما يحلم به كمال وما أحلم به أنا أيضا معه.

كل يوم أذهب إلى موقع العمل. ما أن أحتسي الشاي حتى أركب سيارتي وأقودها إلى ميدان التحرير، أتجاوزه ثم أنعطف يسارا إلى كورنيش النيل. وأسير في خط مستقيم بمحاذاة الشاطئ حتى أصل.

أراقب الآلات الضخمة وهي تدك الأرض بإيقاع منتظم وعالٍ يصم الآذان.. المساحة متساوية الأضلاع تشبه صندوقا غائرا في الأرض هي المساحات التي تقام عليها الأساسات. بعد وضع الأساسات بدأوا في إقامة هيكل المبنى. أكوام من الأسمنت والرمل والزلط وصفَّات من الطوب تملأ المكان، وعمال البناء يشتغلون بملابسهم الداخلية الرثة، يتوزعون على الأرض وفوق السقالات.. كل شيء يسير كما يجب!

سيكون المستشفى من عشرة طوابق يخصص الطابقان الأول والثاني للعيادة الخارجية يتوسط كلًّا منهما قاعة واسعة للانتظار تحيط بها غرف الكشف. في الطابق الأول غرف الكشف الباطني والجراحة وأمراض النساء والأسنان والعيون. وفي الطابق الثاني التحاليل والأشعة ورسم القلب. وفي الطابق الأرضي المغاسل والمطابخ. وفي الطابق الأخير سكن الأطباء. أما الطوابق الستة الأخرى ففيها خمسون غرفة مخصصة للنزلاء من المرضى إلى جانب الصالات وحجرات الممرضات. وفي مدخل المستشفى بجوار الاستقبال ثلاث محلات صغيرة أحدها لبيع الأزهار والثاني للحلوى والثالث للمجلات والجرائد.

قلت لكمال إنني مستعدة لتحمل مسئولية الإشراف على تأثيث المستشفى. المهمة صعبة ومرهقة ولا تترك لي ساعة فراغ ولكني أجد فيها متعة. أقارن بين الإمكانات والبدائل وأستقر في نهاية المطاف على التعامل مع محل كبير للأثاث بدمياط يملكه الحاج عبد الرسول. سيصنع كل ما يحتاج إليه المستشفى من خزائن وطاولات. وسيكلف اثنين من النجارين الأكفاء بعمل دواليب الحائط. اتفقنا على كل

شيء: المقاسات ونوع الخشب أو المعدن والطلاء والثمن وموعد التسليم.

رغم تعدد مسئولياتي فإنني أشعر بالارتياح والرضا. التحق سعد بكلية الطب وأصبحت سوسن في السنة الرابعة بكلية الحقوق وعادت زينب من الخارج مع طفليها. عجبت كيف كبرت خديجة في العامين اللذين تغيبوهما في الخارج. والصغير كريم لطيف وجميل، ولكن للأسف لا أتمكن من رؤيته كثيرا. زينب تحتج وتقول إنني نسيتها وإنني في السابق كنت أزورها يوميا، والآن لو لم تسأل هي عني وتأتي لرؤيتي لا تراني. أؤكد لها أن كلامها غير صحيح، كل ما في الأمر أن المستشفى يبتلع الوقت ابتلاعا.

أذهب كل يوم إلى المعادي أتابع العمال وهم يمدون مواسير المياه وأسلاك الكهرباء ويبلطون الأرضية ويركبون الأبواب والنوافذ. سباكون وكهربائية ونجارون ومبلطون يعملون طوال اليوم وعليّ أن أمر عليهم لأشعرهم أن للعمل صاحبا مهتما حريصا ومفتوح العينين. العمال مهملون لا يقومون بواجباتهم إلا لو وقف صاحب المصلحة على رءوسهم، وأنا أقف على رءوسهم.

أستيقظ في الثامنة وأشرب الشاي مع كمال ثم يذهب هو إلى عمله وأعطي أنا التعليمات للطباخ والشغالة بشأن المطلوب للبيت من أكل وترتيب، ثم أقود سيارتي إلى المستشفى أضغط على بوق السيارة فيهرول عم هريدي البواب ويفتح البوابة الحديدية التي لم يتم طلاؤها بعد. أوقف السيارة أمام باب المستشفى وأصعد. أمر بالنقاشين في مراحل مختلفة من العمل. في الطوابق الأولى

يقومون بطلاء الطبقة الثالثة والأخيرة. يقفون على السلالم الخشبية المزدوجة وسطل الطلاء في يد والفرشاة في اليد الأخرى. تغمس الفرشاة في الطلاء وتتحرك بطول الذراع جيئة وذهابا تضفي على الجدران لمعة سميكة مبللة.. أما في الطوابق العليا فما زال العمال يصنفرون الجدران بأوراق الصنفرة الخشنة ويمعجنونها. الصبية الصغار يعدون الغراء على مواقد الكيروسين ويخلطون الطلاء في الأسطل المعدنية. أراقب العمل وأتابع وأدقق وأبدي الملاحظات وأنبه للعيوب وأطلب إصلاحها وتلافيها. وعندما أنتهي من المرور في الطوابق العشرة أنزل إلى الغرفة المخصصة لي بالطابق الأول فتأتي لي زوجة عم هريدي بفنجان قهوة. أحتسيه وأدخن وأنتظر ساعة أخرى أدون الأشياء المطلوبة مني ثم أركب سيارتي وأعود إلى البيت.

حددنا موعد الافتتاح بعد شهر من انتهاء بناء المستشفى. أشرف كمال مع عدد من الأطباء الشباب الذين يعملون معه على نقل الأجهزة الجديدة التي وصلت من الخارج في علب كرتونية مغلقة. قاموا بفتحها وتجربتها. وأشرفت أنا على نقل الأثاث وتأكدت أن كل شيء أصبح في مكانه بما في ذلك الستائر وأصص النباتات والأزهار. وجهنا الدعوات لحفل الافتتاح وأرسلت تهنئة إلى كمال بهذه المناسبة نشرناها في الجرائد إلى جانب التهاني الأخرى التي بعث بها زملاؤه.

في صباح اليوم المحدد ذهبت إلى الحلاق فأعاد صباغة شعري بنفس اللون البني الفاتح الذي اعتدت عليه في السنوات الأخيرة وصففه لي. وفي الرابعة بعد الظهر لبست ثوبا جديدا من الدانتيل

الأسود وتزينت وتعطرت وتحليت بعقد الماس والأسْورة والحلق الماسيين. لبست حذاء من الستان الأسود وألقيت نظرة أخيرة على المرآة. «ما رأيك؟» أجاب كمال: «رائع، الملكة فريدة في زمانها لم تكن أكثر أناقة!». ضحكت وقلت إنه يبالغ ولكني سعدت بالملحوظة.

ركبنا في المقعد الخلفي وقاد بنا السائق إلى المستشفى.. وكانت البوابة الحديدية المطلية حديثا بطلاء أسود لامع مفتوحة على مصراعيها، يقف بجوارها عم هريدي وقد لبس جلبابا رماديا وعمامة بيضاء ناصعة. بداخل المستشفى وجدنا عددا من الأطباء والممرضات وزينب ومجدي وسعد. سألت عن سوسن «كانت هنا، ربما نزلت الحديقة». ثم رأيتها. صعقت! كانت البنت المجنونة قد أتت بالصندل وفستان قطني من الفساتين التي تذهب بها إلى الجامعة. انتحيت بها جانبا ووبختها! قلت: «عودي الآن فورا إلى البيت غيري ملابسك وارجعي!». تركتها وذهبت لا وقت لديّ للتعامل مع جنونها. لماذا لم تفعل كزينب؟ جاءت زينب بثوب من الحرير الطبيعي الكحلي مفتوح النحر وبلا أكمام يبرز بياض بشرتها، وكانت تتحلى بعقد من اللؤلؤ الحر يناسب دكنة الثوب. بدت جميلة وراقية، تشرف.

بدأ الضيوف يتوافدون.. ثم وصل المحافظ فالوزير وبدأ كمال يريهم أقسام المستشفى وتجهيزاتها، ورحنا ننتقل من طابق إلى طابق ومن حجرة إلى حجرة.. وعلق الوزير ضاحكا: «ذوق خديجة ملموس في كل ركن!». الوزير صديق قديم كثيرا ما دعوناه إلى العشاء في بيتنا قبل أن يصبح وزيرا. كمال يقول إنه طبيب متوسط الإمكانات ولكنه ماهر جدا في العلاقات العامة.

في السادسة إلا خمس دقائق كنا في طريقنا إلى «التراس» لتناول الشاي. قال المحافظ عندما وصلنا: «ولكنه أكثر من مستشفى إنه مزيج من مستشفى وفندق فاخر!». فضحك كمال وقال: «هذه أفكار خديجة». ابتسم لي المحافظ فرددت بالابتسام. كان المقهى جميلا فعلا على سطح المبنى تحيط به من ثلاث جهات أصص من أزهار الفل والبانسيه موضوعة في حوامل مستطيلة من البلاستيك المثبتة بمحاذاة السور. وكانت الموائد الصغيرة قد أزيحت جانبا ووضعت بدلا منها مائدتان كبيرتان على كل منهما مفرش أبيض. واحدة منهما تحمل الفناجين والأطباق والسكريات واللبانات وأطباقا بها أكياس الشاي والقهوة. والثانية عليها قطع الحلوى والمملحات. وكان هناك أربعة شباب يلبسون سترات بيضاء يقومون على خدمة الضيوف.

في السابعة والنصف ودعنا آخر الضيوف. وقال كمال إنه بإمكاننا أن نشرب فنجان قهوة في هدوء قبل أن ننتقل إلى الفندق للعشاء. قالت زينب إن كل شيء تم بأفضل شكل ممكن، فعلق مجدي ضاحكا: «طول عمري أقول إن خديجة مستبدة رائعة!». ضحك كمال وزينب ولكني لم أضحك.. فهل قصد مجدي الإطراء أم الذم؟ قال كمال موجها كلامه لسوسن التي كانت قد عادت بثوب لائق: «لا أدري يا سوسن لماذا لا تتزينين؟ شيء بسيط من الزينة يجعلك كالأميرات!». ضحكتْ: «ولكني سأكون محامية وليس أميرة! هل رأيت أميرة تلبس روب المحاماة؟». قال لها وهو يضحك إن لسانها طويل، فأجابته مداعبة: «وهذه أيضا من صفات المحامين!». سوسن بحاجة لرقابة مستمرة. لو تركت لشأنها لأصبحت كالهيبيين مهوشة

الشعر رثة الثياب. أبوها على حق، حين تعتني بملابسها يصبح واضحا أنها بنت ناس.. ولكنها عنيدة.

قال كمال لسعد: «كان حلمي دائما أن أبني هذا المستشفى. في الخمسينيات كنت شابا ولم يكن لدي لا الاسم الذي يسمح ولا المال الذي يكفي. وفي الستينيات طلعوا علينا بموال الاشتراكية فلم يعد الواحد منا يأمن على الخاتم في أصبع زوجته. ثم انقشعت الغمة وعشت لأحقق حلمي. حين تتخرج من كلية الطب يا سعد وأراك تدير هذا المستشفى سأكون قد حققت كل شيء. ساعتها أضع رأسي في هدوء وأموت مرتاحا». احمر وجه سعد وعاتبت كمال على هذا الكلام الحزين الذي لا داعي ولا معنى له. قلت وأنا أنظر لساعتي: إن علينا التوجه إلى الفندق لكي نكون باستقبال ضيوفنا.

أنا وكمال وسعد ركبنا سيارتنا السوداء التي يقودها السائق. أما زينب وسوسن فذهبتا مع مجدي في سيارته. عندما خرجنا من البوابة الحديدية رفع عم هريدي يده بالتحية. رأيناه يغلق البوابة بالسلسلة الحديدية.

ينساب الطريق لعدة كيلو مترات ثم يزدحم. وعندما نصل مصر القديمة يختنق. يتحرك صف السيارات الطويل في بطء ثم يتوقف ثم يعود يتحرك كزاحفة معاقة. النيل عن يسارنا غارق في الظلام تحدد ضفتيه أضواء الكورنيش ومساكن جزيرة الروضة. وعن يميننا صف الحوانيت الصغيرة الرثة وبعض المقاهي. يبقى الطريق مزدحما حتى نصل إلى كوبري الملك الصالح. نعبره ونواصل عبور شارع الروضة إلى كوبري عباس فميدان الجيزة وفقط عندما نقطع النفق

يخف الزحام ويتمكن السائق من قيادة السيارة بسرعة عادية. الشارع واسع تنساب فيه حركة المرور حتى تبدو لنا الأهرام كتلال داكنة في الليل. ينحرف السائق يمينا وبعد دقائق يتوقف أمام الفندق الكبير. بجوارنا يتوقف مجدي بسيارته. ننزل ونقترب من الباب الزجاجي فينفتح آليا. ندخل إلى حيث الهواء المكيف والبرودة المنعشة.

أقول إنني سوف أدخل إلى دورة المياه لإصلاح زينتي. «وأنا أيضا» تقول زينب وتصحبني. ندفع الباب الكحلي المثبت عليه شكل معدني لوجه امرأة. نتجه إلى الأحواض أولا، أغسل يدي وأبلل منديلا ورقيا أمسح به وجهي. تحذو زينب حذوي. ثم ننتقل إلى المرايا. تجلس كل منا أمام واحدة وتفتح حقيبة يدها وتخرج عدة زينتها: كريم الوجه والبودرة وأحمر الشفاه والكحل وظل العينين ومزيل العرق والعطر. نتزين ونصفف شعرنا ونتعطر ثم ندفع الباب الكحلي ونخرج لنلحق بكمال وسعد ومجدي وسوسن وننتظر معهم الضيوف.

ضيوفنا ستة: الدكتور سالم وزوجته وابنتهما، الدكتور منير الذي عاد أخيرا من السعودية وزوجته، وطبيب شاب يحبه كمال كثيرا ويقول إنه ممتاز اسمه هلال. وصل الدكتور سالم في موعده بالدقيقة. رأيته عبر الباب الزجاجي يقترب بخطوته الثقيلة متكئا على ذراع زوجته. قال وهو ينحني ويقبل يدي كعادته: «أهلا بالملكة»! ضحكت وسلمت على زوجته إحسان وقبلتها. أما راندا فضممتها إلى صدري وأنا أقول إنني كل مرة أراها أجدها كبرت قليلا واحلوت كثيرا. لراندا ذكاء أبيها وجمال أمها ورقيها في الهندام والسلوك، وأنا أحبها كثيرا.

لم ننتظر طويلا. جاء الدكتور منير وزوجته في نفس الوقت مع

الدكتور هلال. كنت أعرف منير جيدا ولم أكن رأيت هلال سوى مرتين. أما زوجة منير فكانت المرة الأولى التي كنت أراها. فاجأتني بثوبها المقصب اللامع وغطاء رأسها الأشبه بعمامة مطرزة عليها وردة هائلة. على جانبها الأيمن خيوط القصب. التقت عيناي بعيني زينب ولكني تمالكت نفسي وابتسمت مرحبة وأنا أدعو الجميع للطابق العاشر حيث المطعم.

وجدنا المائدة بانتظارنا تحمل بطاقة الحجز وعليها مفرش فستقي منشي وفوط بنفس اللون مطوية طيات صغيرة طولية ومثبتة من أسفل كل بحلقة فضية ومنشورة من أعلى في شكل مروحي. الأطباق والأكواب والفضية منسقة بالشكل اللائق يتوسطها مزهريتان بلوريتان بكل منهما وردة بلدية حمراء وبينهما شمعدان من فضة به ثلاث شموع مضاءة. وكانت المائدة ملاصقة للمربع المخصص للرقص والعرض الفني. جلسنا: كمال على رأس المائدة وعن يمينه الدكتور سالم وعن يساره إحسان. بجوار الدكتور سالم جلست زينب فالدكتور منير ثم سوسن فالدكتور هلال. وبجوار إحسان جلس مجدي فزوجة منير ثم سعد فراندا.. وجلست أنا على الرأس الآخر للمائدة. جاء النادل بعصير برتقال ثم وزع علينا قائمة الطعام لنختار. اخترنا. ضوء خافت وعزف ناعم. الدكتور سالم يقول: «أحسنت يا خديجة الاختيار!». ثم يضحك: «ولكن قولوا هل هي مؤامرة تجلسوني في أقصى مكان ممكن عن خديجة؟». الدكتور سالم راق ومهذب. تعلم في أوروبا وظل محتفظا رغم سنه بالسلوك الاجتماعي المنمق. يحيي النساء بتقبيل أيديهن ويعرف كيف يقول لهن كلمات الإطراء الرقيقة. وإحسان راقية مثله تعرف كيف تلبس وكيف تضع

المساحيق، كيف تتحدث ومتى تتحدث، لو تطبع زوجة منير بشيء من أناقتها! كدت أضحك من هذه الطاقية التي وضعتها على رأسها، ومن الأحمر المؤذي الذي صبغت به شفتيها. أتى النادل بالطعام. ترى أين ذهب مجدي؟ نأكل. عاد مجدي وبدأ هو أيضا يأكل.

قال الدكتور منير إنه سمع أن فؤاد سراج الدين قدم طلبا لتشكيل حزب الوفد من جديد. قال كمال ضاحكا: «وهل ما زال به رمق؟». فاعترض الدكتور سالم وقال بجدية شديدة: «لا تخطئ يا كمال إنه الوحيد المؤهل لقيادة البلاد!». ضحكت سوسن فسألتها بصوت هامس: لماذا تضحكين؟ فقالت: «تذكرت شيئا مضحكا!». واصل الدكتور سالم: «لو سمح السادات بتكوين حزب الوفد يكون أثبت أنه ديمقراطي فعلا ويكون حقق للبلد إنجازات عظيمة: الانفتاح والديمقراطية والانتصار على إسرائيل في حرب أكتوبر». فقال الدكتور منير «نسيت إنجازا آخر يا دكتور. طرد الخبراء السوفيت من مصر». وقال كمال: «باختصار أعاد مصر إلى الدنيا. كان الآخر قد دفنها بالحياة!».

هلال ينظر إلى سوسن نظرات مختلسة، ألاحظ ذلك. يقول عنه كمال إنه شاب ممتاز، خجول وقليل الكلام ولكنه جراح موهوب وابن ناس. راندا تتحدث مع سعد بطلاقة وبساطة. أحب هذه البنت! تابعت نموها منذ كانت طفلة في الخامسة. كانت دائما ذكية ولطيفة المعشر

يحتل العازفون أماكنهم ويبدءون في عزف موسيقى راقصة. قام بعض الجالسين للرقص. وقال الدكتور سالم وهو يضحك: «قم يا كمال ارقص مع خديجة وإلا قمت أنا»! وكان يمزح لأنه يمشي

بصعوبة متكئا على عصاه أو مستندا إلى ذراع إحسان. فقال كمال: «منذ شهور أكملت الستين.. راحت عليّ يا دكتور سالم.. قم أنت يا سعد ارقص مع راندا» قام سعد ليراقص راندا.

قال مجدي بشكل مفاجئ: «وأنا سأرقص مع خديجة!». وتطلعت إليه باندهاش ولكنه قام من مقعده ووقف بجواري وأمسك بيدي فقمت. قلت له وأنا أتبعه إلى دائرة الراقصين. «ألم يكن أنسب أن تطلب زينب للرقص أولا؟». فأجاب: «سأرقص معها بعد ذلك». يحيط مجدي خصري بذراعه اليسرى ويضع يده اليمنى على كتفي. يراقصني ويقود خطواتي بقوة ويسر. وجهه قريب من وجهي، أقرب مما ينبغي، أشعر بأنفاسه، أسأله: «هل شربت يا مجدي؟». قال. «ماذا أفعل إن كنتم بخلاء، لا تقدمون لضيوفكم مشروبا؟». قلت: «لو عرف كمال أنك تغيبت عن المائدة لتذهب إلى البار لغضب منك!»، قال وهو يضحك: «هذه أول مرة أرقص فيها معك،هل تعرفين ذلك؟». قلت وأنا أبتسم: «أعرف!»، «وهل تعرفين أنك أجمل امرأة رأيتها في حياتي؟». تركت يده وقلت له بصرامة: «مجدي أنت سكران!». فضحك وقال باحتجاج: «وأقول هذا الكلام لأني سكران؟ حرام عليك! هذا رأيي منذ ثلاثين سنة، منذ رأيتك تتزينين للقاء كمال يوم جاء لخطبتك وقالت لي أمك روح يا شاطر عند جدتك! ولما روحت بكيت وقلت لجدتي. اشمعنى أحمد يقابل العريس ويجلس مع خديجة وهي جميلة هكذا؟ ساعتها ضحكت جدتي مني تماما كما تفعلين الآن»! ضحكت ولكن مجدي لم يضحك وشعرت بذراعه تلتف على خصري بقوة أكثر. كان جسده أقرب مما يجب. قلت: «يكفي يا مجدي! لنعد إلى مقاعدنا».

قال: «ولكني أريد أن أرقص معكِ!» قلت: «وأنا أريد أن أعود إلى مقعدي!». ولم أنتظر. خرجت من دائرة الراقصين وتبعني. هل مجدي ثمل أم أن هناك ما يربكه ويجعله هشا؟ هل لا تعطيه زينب ما يحتاجه؟ إنه مرتبك ومربك.

لم يطلب هلال سوسن للرقص بل طلبها سعد.. ولم يطلب مجدي زينب فقلت بصوت عالٍ: «قم يا مجدي ارقص مع زوجتك». فقام.

وعندما انتصف الليل قامت فرقة العازفين المصاحبة للرقص الغربي، وحلت محلها فرقة شرقية لمصاحبة البرنامج الفني. قام مجدي فلحقت به وقلت له بصرامة: «لو ذهبت إلى البار مرة أخرى فسأقول لكمال، وقد يوبخك أمام كل المدعوين!». فأجاب: «خديجة لماذا لا تتركيني وشأني؟». وتركني وذهب.

ظهرت الراقصة وبدلنا مواقع مقاعدنا قليلا حتى نتمكن من المشاهدة. للراقصة شعر أسود طويل يصل إلى منتصف ظهرها، ووجه مثقل بالمساحيق، وثوب قماشه لامع وسميك فيما يغطي الثديين والردفين، أما ما عدا ذلك فغلالة رقيقة تشف عن تفاصيل الجسد. ترقص حافية القدمين على إيقاع الطبال وضارب الدف. تبرز الساق اليمنى من أعلى الفخذ حتى القدم العارية من تحت ثنيات الثوب، تدق الأرض بحركة تواكب اهتزاز الكتفين وخضخضة الثديين وتقوس الذراعين، ولحم البطن العاري يتموج ويرتج.

قال كمال: «أول مرة شاهدت فيها راقصة بلدية أصابني الذعر!». ثم وهو يضحك: «ما رأيك يا سعد؟». فتمتم سعد بشيء غير مفهوم واحمر وجهه. قالت زوجة الدكتور منير: «الرجال يحبون الرقص

البلدي لأن عيونهم فارغة!». فلم يعلق أحد على كلامها. هذه المرأة تكسف في لبسها وحديثها.

تقترب الراقصة منا وتصعد فوق مائدتنا وترقص عليها ويتطاير ذيل ثوبها الشفاف في وجوهنا فنضحك ونصفق لها على الواحدة والنص وهي تهتز وتتمايل وتنثني وتدور وتقفز وتلف وتترجرج في حسية بالغة. ثم قفزت الراقصة بليونة من فوق مائدتنا وانتقلت إلى مائدة أخرى.. وقالت إحسان: «أين ذهب مجدي؟ ضاعت فرصته في المشاهدة!»، وقال الدكتور سالم: «هذه الراقصة موهوبة». ثم وهو يكلم راندا مبتسما: «ما رأيك يا راندا؟ سندعوها لكي ترقص في فرحك!». فسألت زوجة الدكتور منير: «هل راندا مخطوبة؟». فضحك الدكتور سالم: «ليست مخطوبة». فضحكت أنا وقلت: «ألف من يتمناها وأنا أولهم، ما رأيك يا راندا؟». فابتسمت راندا واحمر وجهها وكذلك سعد احمر وجهه ولكنه لم يبتسم.

لم يظهر مجدي إلا ونحن على وشك المغادرة، ولاحظت احتقان وجهه. «هذا المجنون أسرف في الشراب، فكيف يقود السيارة الآن؟».

ودعنا ضيوفنا وقد تجاوزت الساعة الثانية بعد منتصف الليل. كان السائق في السيارة وقد أغفى مستندا برأسه إلى المقود. دق له سعد على نافذة السيارة فانتبه ونزل ليفتح لكمال الباب. قلت لكمال: «يبدو أن مجدي متعب! سأقود أنا سيارته. تعالوا أنتم ورائي حتى بيت زينب فأركب معكم». ركبت سوسن وسعد مع كمال والسائق، وقدت أنا سيارة مجدي. جلست زينب بجواري ومجدي في المقعد

الخلفي. كانت زينب تلتفت إليه وتكرر السؤال عن حالته ولماذا لم يقل إنه متعب. قلت: «ليس متعبا. السيد المحترم كان يتركنا ليذهب إلى البار ويشرب. إنه سكران! لو تركته يقود السيارة فستنتهي الليلة بكارثة». قال مجدي: «خديجة أنا أحبك فلماذا تكرهينني؟» زجرته زينب. أما أنا فلم أجبه.

١٢

لا وقت لديّ للراحة. لا وقت! يأخذ المستشفى كل وقتي. أذهب إليه كل صباح ولا أعود إلا بعد الظهر وأحيانا أعود في المساء. أُشرف على كل شيء، الأكل والنظافة والنظام ورعاية المرضى. فقط يوم الجمعة لا أذهب. أصفف شعري عند الحلاق ثم تأتي زينب وأولادها ونجتمع على مائدة الغداء. كمال يقول «أنت الكل في الكل»! في المستشفى أيضا يقولون ذلك. أحب أن يسير العمل بانضباط الساعة ودقتها. المستشفى مؤسسة كبرى لها اسمها وسمعتها والمرضى يأتون إليها ليس من مصر وحدها بل من كل البلاد العربية. ابنة رئيس الجمهورية وضعت عندنا، ورئيس الجمهورية زارنا وتعرفت عليه وقدمت له الشيكولاتة وشربت معه القهوة ووجدته رجلا لطيفا جدا ومهذبا.. واستغربت أن يكون له أعداء ومعارضون. أميرة سعودية أجريت لها جراحة ناجحة عندنا وشخصيات كبيرة ومتنفذة تأتي عندنا لأن الكل يعرف أنه في الخدمة الطبية وفي النظافة والترتيب نحن الأكثر تفوقا.

يقولون إنني صارمة ولكن الإدارة تتطلب ذلك. لا أطيق رؤية ممر غير نظيف ولا ممرضة مهوشة الشعر ولا عاملا يأتي متأخرا خمس

دقائق. نحن ندفع أعلى الرواتب ومن حقنا أن نحصل على أفضل نوعية من العاملين. المهمل أنهي خدمته، بلا طول كلام. الصرامة لازمة ونتائجها واضحة، والذكاء ضروري وكذلك الحساسية في التعامل. وردة وكعكة صغيرة مع بطاقة تهنئة للأم صبيحة يوم الولادة. زيارة سريعة مع كلمة طيبة للمريض بعد العملية.

منذ افتتح المستشفى لم تحدث مشكلات، المشكلات أنهيها قبل أن تصبح مشكلات. مرة واحدة فقط لم أتمكن من محاصرة الأمر. مريض وقح أجريت له عملية وأمضى بالمستشفى عشرة أيام كاملة. عند المغادرة طلبوا منه عشرة آلاف جنيه فقال «لماذا؟». أوضحوا له أن المبلغ مقابل الفحوصات والتحاليل التي أجريت له قبل العملية وبعدها والعملية نفسها والإقامة والرعاية الطبية. علا صوته واتهمنا بالسرقة فطلبنا له الشرطة. يجب ألا نتعامل مع هذه النوعية من الناس. هذا المستشفى محترم ولا بد أن يقتصر على المحترمين. ومن كانت إمكاناته المادية لا تسمح فليبحث لنفسه عن مكان آخر. إننا نصرف على المستشفى بسخاء فهل نعمل بلا مقابل؟ والأموال الطائلة التي وضعها كمال في المشروع هل تذهب كأنها ضاعت منه في الطريق؟ أليس من حقه أن يسترد شيئا منها؟ لسنا ملجأ ولا مشروعا خيريا، إننا مستشفى محترم للناس المحترمين.

قلت لكمال إن أهلنا، أهلي وأهله، قد دعوا لنا وإن الله يوفقنا في كل شيء، والمستشفى يحقق نجاحا مدهشا ليس فقط في السمعة والمكانة ولكن أيضا في الدخل الذي يدره. وسعد، الله هداه والتحق بكلية الطب، وزينب سعيدة مع مجدي والصغيران ممتازان، وسوسن تخرجت من كلية الحقوق. علينا أن نذهب للعمرة

ونزور قبر الرسول ﷺ ونصلي في الحرم ونسجد حمدا لله الذي لم يبخل علينا بأي شيء. نخطب لسعد ونزوج سوسن وبعدها نسافر للعمرة أو ربما حتى للحج «ما رأيك في راندا لسعد؟». قال: «وما داعي الاستعجال؟ اتركيه حتى يتخرج من الجامعة». فقلت له: «إن راندا لن تنتظر وقد يخطبها غيره فنندم على تأخرنا» «ولكننا لا نعرف رأي سعد». أقنعت كمال بأن يترك الأمر عليّ. لن يقول سعد لا ولو قالها فلن يكون لديه سبب سوى العناد فراندا جميلة وبنت ناس ولا يمكن لعاقل أن لا يتمناها.

لم يبد على سعد الحماس ولكني أقنعته وذهبت مع كمال لزيارة الدكتور سالم وطلبنا البنت. قرأنا الفاتحة واتفقنا على كل شيء.

سعد وردتي وهو الأقرب والأغلى والأحلى. في ليلة خطبته كنت أتطلع إليه فتملأ عيني الدموع وتأتيني صورته وهو قطعة لحم صغيرة ودافئة بين ذراعي وأكاد أشعر بفيض الحليب في ثديي وبالفم الصغير يرضع منه. ليسعدك الله يا سعد ويملأ أيامك بالفرح وتصبح أعظم طبيب في البلد.

عندما ألبس سعد راندا خاتم الخطبة وخاتم الشبكة خلعت أنا عقد الماس الذي كنت أتحلى به وأحطت به عنق راندا. بكت إحسان تأثرا، قالت إن هذا كثير، فأجبتها وأنا ابتسم: إن راندا ست البنات ولا شيء يكثر عليها.

لم يبق إذن إلا أن أزوج سوسن. كنت أفكر في ذلك وأنا في طريقي إلى المستشفى، وعندما وصلت قالت لي سكرتيرتي إن «فؤاد بيه» في انتظاري في المكتب. توقعت أن تكون زيارة لعمل

بعض الفحوصات. كان الرجل الذي يشغل منصبا كبيرا في الدولة قد دخل المستشفى قبل فترة وأجرى له كمال جراحة ثم وضعت ابنته طفلها عندنا فأصبحت تجمعنا علاقة ود وتزاور عائلي.

دخلت المكتب فقام ليصافحني. كان طويلا يميل إلى الامتلاء يلبس كعادته قميصا أبيض وبدلة داكنة من ثلاث قطع وربطة عنق حريرية. كانت هيئته تشي بالاحترام والأهمية. بدأ بالاعتذار لأنه جاء بلا موعد. قال: «أنتم ناس طيبون. الدكتور كمال طبيب عظيم وأنت سيدة فاضلة. فكرت أن أحدث الدكتور كمال في الأمر ثم عدلت، وقلت إنك قد تكونين أقدر على التصرف». أتى الساعي بالقهوة فتوقف فؤاد بيه عن الكلام.. «أقدر على التصرف؟». استوقفتني العبارة وبدأت أتوجس. كنت أظن الرجل جاء قاصدا خدمة. أغلق الساعي الباب فواصل فؤاد بيه: «باختصار يا سيدة خديجة كنت مع صديق حميم بوزارة الداخلية وبالمصادفة جرنا الكلام إلى الحديث عن الدكتور عبد الموجود إسماعيل وهو أستاذ في كلية الحقوق. قال صديقي إن هذا الأستاذ مشاغب ولن يردعه سوى الاعتقال، فقد جمع حوله مجموعة من الشباب كانوا طلابه وهو يلتقي بهم بانتظام بشكل مشبوه، ولذلك فقد أدرج اسم الأستاذ وكل المترددين عليه في قوائم بوزارة الداخلية!».

كنت أشعر بغصة في حلقي وجفاف في فمي وأعرف ما الذي سوف يقوله الآن. «ولقد ذكر لي صديقي بعض أسماء هؤلاء المحامين، وأدهشني جدا أن أجد اسم سوسن ابنتك بينهم. تصورت أن هناك تشابها في الأسماء ولكن صديقي أكد لي أنها سوسن ابنة الدكتور كمال، وأنها فتاة مشاغبة مشكلاتها كثيرة منذ كانت طالبة

بالجامعة ولها ملف بالمباحث. طبعا رجوت صديقي أن يعمل على شطب اسمها، أو إخفاء الملف لأنه في النهاية هذه البنت ابنتنا. سأكلم أهلها ليتصرفوا معها».

كان يجب الآن أن أقول شيئا. لم أكن أعرف ما الذي يمكن أن أقوله. شكرت فؤاد بيه بحرارة، وقلت له إن تصرفه كرم لن أنساه طول حياتي. سلمت عليه وودعته حتى باب المستشفى وأنا أكرر شكري وامتناني وأؤكد له أن البنت طائشة وغير مسئولة وأني سأعاقبها وأؤدبها وأعلمها كيف تتصرف كأولاد الناس المحترمين.

غادر الرجل وعدت إلى مكتبي. طلبت فنجان قهوة وقلت للسكرتيرة إنني لا أريد أن أقابل أحدا. كان عليّ أن أستجمع نفسي قبل أن أفعل أي شيء.

سوسن مجرمة خدعتني وخانت ثقتي بها. أوهمتني أنها ارتدت عن عنادها وسلوكها المراهق وهي على حالها لم تتغير. قال فؤاد بيه إن مشاكلها كثيرة من أيام الجامعة. وزارة الداخلية تعرف عن ابنتي أكثر مما أعرف. ما شاء الله! وأنا آخر من يعلم! لو صفعتها ألف مرة ما شفيت غليلي! تقوم بنشاط مشبوه؟ إنها مجنونة.. أنانية لا تفكر في سمعتها ولا في سمعة أبيها. ماذا يقول الناس: ابنة كمال صفوت على علاقة بالصعاليك الذين لا عمل لهم سوى معارضة الحكومة؟ ومن أين أتت بهذا الطيش؟ لم يحدث أبدا في عائلتنا ولا في عائلات المعارف أن خرجت بنت بهذا الشكل عن الصراط المستقيم. لا بد أن أعرضها على طبيب نفسي. قد تكون مختلة عقليا. فماذا نفعل في هذه الحالة؟ هل نودعها مستشفى للأمراض العقلية؟ لا داعي

للفضائح، من يتزوجها بعد ذلك؟ ثم إن الأمر قد تنسحب عواقبه على خديجة ابنة زينب وبنات سعد في المستقبل.. ولكنها ليست مجنونة. إنها ذكية. وربما كانت أكثر أولادي لماحية. فما الموضوع إذن؟ طيش؟ عناد؟ عدم تقدير للمسئولية؟ كانت مراهقة وكان أبوها يقول لي مرحلة وتمر ولكنها طالت، طالت بما لا يحتمل.

عندما كنت في سنها كنت مسئولة عن بيت وزوج وثلاثة أطفال فماذا أفعل؟ هل أحبسها في البيت؟ إنها في الخامسة والعشرين.. فكيف أحبسها في البيت؟ سأقول لها يا سوسن إما أن تحترمي هذا البيت الذي تعيشين فيه وتحترمي أهله وسمعتهم أو تتركيه.. وماذا لو تركته؟ كيف تتركه؟ هل هي فوضى؟ أليس لها أب وأم ومجتمع يحكمها! ليست حرة تفعل ما تشاء. إنها ابنتي وعليها أن تطيعني بالشرع والعرف والقانون.

وماذا أقول لكمال؟ لم تعد صحته كما كانت وعلينا مراعاته. قد يصاب بذبحة من خبر كهذا. إنه مستنير ومتزن، هذا صحيح، ولكن أي اتزان هذا الذي لا يصدمه معرفة أن ابنته تصادق أشخاصا على قوائم المشبوهين الذين تريد الحكومة وضعهم في السجن! لو أنه جبل لتفتت من الخبر، وهذه ابنته، سمعته وشرفه وعرضه. لن أقول له، سوف أتصرف أنا معها.

لاحظت أن المنافض الكبيرة الثلاث التي أمامي امتلأت بأعقاب السجائر وكذلك الفناجين الأربعة التي شربت فيها القهوة. غادرت المستشفى وركبت سيارتي عائدة إلى البيت.

عندما عادت سوسن إلى البيت لم أقل شيئا. تركتها تقبل وجنتي

كعادتها وقلت دون أن أرفع رأسي لأنظر إليها إنني أريد أن أتحدث معها بعد الظهر. قالت: «نؤجله للمساء لأن لديّ مواعيد». فأجبتها بقطع أدركته: «الغي مواعيدك، إنه أمر ضروري». وجلسنا لتناول الغداء. لم أخاطبها ولم أرفع عيني في اتجاهها. ولما ذهب أبوها إلى عمله ناديتها إلى حجرتي وجلست على أحد المقعدين الوثيرين المقابلين للسرير وطلبت منها أن تجلس على المقعد الثاني.

- اسمعي يا سوسن لقد عرفت أن الدكتور عبد الموجود إسماعيل شخص سيئ ومكتبه مشبوه. باختصار أريدك ألا تتصلي به ولا بأي شخص يكون على علاقة به.

- لا أفهم.

- زارني اليوم صديق مرشح للوزارة وله معارف وأصدقاء من الوزراء وقال لي بوضوح إن الدكتور عبد الموجود وكل من حوله لهم نشاط ضد الحكومة وإن الحكومة لن تسكت على الأمر. وقال إن اسمك وأسماء زملائك مسجلة في قوائم في وزارة الداخلية وإنهم قد يقبضون عليكم في أي وقت.

- ولكن ما علاقة هذا الكلام بما قلته من أن عبد الموجود إسماعيل سيئ السمعة؟

- العلاقة واضحة كالشمس. الرجل سيئ السمعة لدى الحكومة!

- عبد الموجود إسماعيل أستاذ جامعي محترم وهو كاتب من...

- لا أريد أن اسمع دفاعا عن هذا الشخص، ولا أريد أن أناقش الأمر أصلا. أريد شيئا واحدا فقط: اقطعي كل علاقة لك بهؤلاء الناس. هل تفهمين؟

هذه البنت ليست بسيطة ولا سهلة. إنها تحدق في كأنني أطلب منها أمرا مستحيلا.

- اختاري يا سوسن. إما أنا وإما هم.

- ماما لماذا تعقدين الأمور؟

هذا النقاش يجب ألا يستمر. لصبري حدود ولا أريد أن أضربها. قمت لأترك الغرفة، وقلت وأنا أقف بالباب:

- إني أعطيك مهلة أسبوعا ليوم السبت.. السبت القادم أنتظر إجابتك: إما أنا وإما هم.. هل تسمعين؟

في اليوم التالي اتصلت بعبد الموجود إسماعيل وطلبت مقابلته. حدد لي موعدا فذهبت إليه. كان مكتبه مؤثثا ومرتبا بما ينم عن ذوق رفيع. وفاجأني ذلك كما فاجأني الرجل نفسه الذي كنت أظنه أكبر سنا. كان في عمر مجدي تقريبا، له جسم رياضي ووجه متسق القسمات وعينان ثاقبتان. قلت:

- هي المرة الأولى التي نلتقي فيها.

قال:

- قد لا تذكرين ولكني قابلتك مرة في المستشفى وكنت أعود صديقا لي هناك.

ابتسم وابتسمت، ثم مرت ثوان من الصمت. لا بد من الدخول مباشرة في الموضوع. قلت:

- يا دكتور عبد الموجود، أقصدك في خدمة. أنت أستاذ ومرب وكاتب كبير تتمتع بسمعة ممتازة ولك مواقفك السياسية الواضحة..

ولكننا أسرة لم يكن لأي من أفرادها علاقة بالسياسة. كان أبي رحمه الله صيدليا، وزوجي الدكتور كمال صفوت جراح، وزوج ابنتي مهندس، وابني في كلية الطب وسيصبح طبيبا كأبيه. إننا نخدم بلدنا بعيدا عن السياسة. وعندما التحقت سوسن بكلية الحقوق لم أتصور قط أنها سوف تورط نفسها في أي نشاط سياسي ولكنها تورطت. وواضح أنها الآن بعد تخرجها سوف تزداد تورطا. أنت أستاذها ولقد قصدتك لكي تنصحها أو على الأقل تتركها وشأنها.. فهي بنت ونحن كأسرة لا نحتمل أن تدخل ابنتنا السجن أو تصاب بأذى.

- هل طلبت منك سوسن ذلك؟ هل جئت نيابة عنها؟

- جئت نيابة عنها لأني أمها.

- لا أفهم.

- أقصد أنني وأبوها وأخوها لا نريد أن يكون لها أي ارتباط بالسياسة ولا بأصحاب النشاط السياسي لأننا نخشى عليها.

هذا الرجل ثعلب مراوغ، تلمع عيناه ويتحدث ببرود:

- لم تعد سوسن صغيرة يا سيدة خديجة. اتركيها إذن تدير حياتها كما تريد ـ ابتسم ـ ابنتك محامية، هل تريدين أن تدافع عن حقوق الناس وتفرط في حقوقها؟

قررت أن أنهي اللقاء. لا فائدة. قلت وأنا أقوم للمغادرة:

- ليس من حقها أن تؤذي نفسها وتؤذينا معها.

لم يكن هناك جدوى من النقاش. إنه رجل سيئ، وقد يكون هو الذي ورط البنت في العمل بالسياسة. ودعته بإيماءة من رأسي. لم

أمد يدي لمصافحته. كان يجب أن أخيفه وأرهبه وأقول له إن اسمه على قوائم المشبوهين وإنه قد يقبض عليه في أي لحظة. لا يريد أن يترك سوسن وشأنها.. سأريه إذن.

طوال الأسبوع لم أكلم سوسن. كنت أتحاشى التقاء عيوننا. لا أنظر في اتجاه تجلس فيه. إن دخلت عليّ في غرفة تركتها كأنني لم أرها. لا أسمع ما تقول ولو سمعت لا أعلق كأنني لم أسمع.. حتى كان يوم السبت، ناديت عليها وسألتها:

- ماذا قررت؟

- لم أقرر شيئا.

- سوسن أنا لا أمزح ولا ألعب. قلت لك إن أمامك أسبوعا للتفكير والإجابة.. فماذا قلت؟

تنظر إليّ كأنها لا تخشاني، كأنها لا تهتم، باردة بشكل مثير. أصرخ فيها:

- ماذا قلت؟

تبتسم ابتسامة تكبر ثم تضحك:

- يا أمي يا حبيبتي لماذا لا نكف عن هذه المشاهد الميلودرامية الصارخة؟ ما تفعلينه وما تطلبينه غير معقول. حتى عبارتك «إما أنا وإما هم» لا معنى لها.

هويت بكفي على وجهها مرة ثم أخرى. كان ذلك أكثر مما يحتمل: برودها، صفاقتها، ابتسامتها الوقحة، كلها أثارتني وجعلت

الدم يغلي في رأسي. أمسكتها من كتفيها ورحت أهزها وأصرخ فيها وأسبها وأبصق على وجهها. تخلصت مني وقفزت باتجاه الغرفة وهي تقول:

- إنكِ تريدين قتلي، هل تعرفين ذلك؟ إنك تريدين قتلي، هل تعين ذلك؟

كانت هي أيضا تصرخ الآن، ثم ذهبت. سمعت خطواتها وهي تركض إلى غرفتها.. ثم سمعت طرقة باب البيت. ناديت سعدا، سألته عنها فقال إنها خرجت.. ثم: «ماما لماذا تعاملين سوسن بهذه القسوة؟». فصرخت فيه قائلة: «لا أريد أن أرى أحدا» فتركني وذهب فانهرت على المقعد وانفجرت في البكاء.

لا أدري كم من الوقت مضى ولكني انتبهت لنفسي عندما وجدت سعد يضع يده على كتفي ويطلب مني أن أقوم لأغسل وجهي. ساعدني على القيام ثم أخذني إلى الحمام محيطا كتفي بذراعه وظل واقفا بالباب حتى غسلت وجهي وجففته. قال: «سأصنع لك قهوة». وعندما عاد كنت أبكي من جديد. قالت إنني أريد قتلها وأنا أمها التي حملتها وولدتها في العسر وسهرت الليالي ملهوفة أرضع وأضم وأحنو وأربي وأكبر، فتقول إنني أريد قتلها. كانت الكلمة كسكين تطعن في قلبي. وهي ابنتي، ابنة حشاي التي تفعل كل ذلك فيّ. مسحت دموعي وأمسكت بالتليفون واتصلت بزينب وحكيت لها وبكيت.

لازمت الفراش عدة أيام. كنت منهارة أنشج بلا انقطاع كلما فكرت أن ابنتي، أقرب الناس إليّ قد غدرت بي. «سأموت يا زينب،

لقد قتلتني أختك بأفعالها». قالت: «بعد الشر يا ماما، لا تقولي هذا الكلام». وبكت هي أيضا.

لم يكن الحزن وحده هو الذي يبكيني، بل الشعور بالحيرة والعجز أمام السؤال المعلق. كلما لاحت لي إجابة أو مخرج وجدته ينتهي بحائط يسد عليّ الطريق، فأبكي. ماذا يقول الناس عني وعنها؟ تركتها أمها بلا ضابط، تركتها تلعب بالنار حتى احترقت. ماذا يقولون حين يصبحون يوما ليجدوا ابنة كمال صفوت وراء القضبان مع المجرمين والقتلة؟ ماذا يقولون حين يعلمون أنها وهي بنت الناس تعيش بمفردها كأنها مقطوعة من شجرة؟ هل أرسل لها سعد ليعود بها؟ هل أذهب أنا إليها أحايلها حتى تنصرف عن عنادها؟ وهل أحسن معاملتها بعد أن أهانتني وطعنتني وقالت إنني أريد قتلها، وفضلت عليّ أناسا سيئي السمعة؟ ماذا أفعل؟ ومن أستشير، وأنا لا أستطيع الحديث في الأمر مع أقرب الأقربين، لا أستطيع أن أحكي لأحد أن ابنتي تركت البيت؟

يقول لي كمال إنه لا داعي لهذه «المناحة» وإنها أزمة عابرة تعود بعدها سوسن إلى البيت، فهي رغم عنادها فتاة عاقلة وسينتهي كل شيء على خير.. فأعجب ويتأكد لي أنه الذي أفسدها بتدليله. كلما قلت له إن ابنته عنيدة لا بد من تلجيمها يقول اتركيها.. تركتها وها هي ذي النتيجة!

أخبرني كمال أن سوسن زارته في العيادة. «ألم توبخها على فعلتها؟». قال: «عاتبتها ولكن حديثنا كان هادئا واتفقنا أن تعود إلى البيت». كان كلامه مقتضبا، لم يشف غليلي. سألته عن البنت كيف

كانت تبدو.. وجهها، ملابسها، حالتها؟ هل سألت عني؟ ولكن كمال كان مرهقا ولم تكن به رغبة في الاستطراد في الحديث. قال وهو يغير ملابسه ويدخل الفراش:

- اسمعي يا خديجة، العقل زينة، والبنت لم تعد صغيرة. إنها في الخامسة والعشرين، قد تختلفين معها، قد ترفضين سلوكها، لكن ليس من الحكمة في شيء أن تبصقي في وجهها أو تضربيها. (توقف وهو يحدق فيّ) لم تقولي إنك ضربتها وأهنتها.

كان هذا أكثر مما يحتمل. قلت له بصوت عالٍ محتد.

- لم أقل لك إن فؤاد بيه زارني في المستشفى وقال إنه عرف من أصدقائه أن الدكتور عبد الموجود مراقب هو وكل من حوله، وأنه قد يقبض عليهم في أي وقت، وأن اسم ابنتك معروف في وزارة الداخلية.. لم أقل لك ذلك كله لأني خشيت عليك. كمال أنت تدلل ابنتك. دللتها إلى حد الإفساد والنتيجة واضحة.

جلس كمال على السرير وأشعل سيجارة.. ومرت لحظات صمت حتى بدا أنه سيقضي الليلة هكذا من دون أن يتكلم ومن دون أن ينام.. وأخيرا قال:

- ملعون أبو فؤاد بيه على عبد المقصود. المهم عندي هو علاقتي بابنتي، وأنا غير راغب ولا مستعد أن أفسد علاقتي بها مهما كان السبب.

- ولكنك بهذا الأسلوب تشجعها على التمادي في الخطأ.

- إنها ابنتك يا خديجة وأنتِ تعرفينها، ورأيت بعينك عندما قلت

لها نحن أو هم تركت لك البيت. ما دامت هذه هي ابنتنا فدعينا من هذه المواقف العاصفة ولنتقبل البنت كما هي.

قفزت من السرير وبدأت أصرخ في وجه كمال وأقول له إنه فقد عقله وإنه يقصر في واجبه كأب مسئول عن حماية ابنته. ما قلته كلام فارغ، استسهال.

قلت وأنا أحدق في وجهه:

- أنا يا كمال لا أستسهل ولا أهمل في تربية أولادي. سأتصرف وسأربيها بالهدوء أو بالعنف.. ولكني سأربيها في كل الحالات.

هل هو الاطمئنان إلى أن سوسن ستعود إلى البيت، أم الإحساس بسلبية كمال وضرورة اضطلاعي بالمسئولية؟ لا أدري أيهما. ولكني بعد هذه المواجهة العاصفة كففت عن البكاء نهائيا. وفي صباح اليوم التالي واصلت حياتي العادية وعدت إلى العمل بالمستشفى.

وعندما عادت سوسن إلى البيت لم أكلمها. كنت أريدها أن تعرف أنني غاضبة.. وأنها أخطأت.. وأنني أعاقبها. كنت أتحاشى الانفراد بها وأعمد عندما أتحدث مع زينب أو سعد أن ألمح للغدر ونكران الجميل والقسوة التي يمكن أن يتعامل بها الأولاد مع أهلهم. ألاحظ امتقاع وجهها فأقول إنها ليست غبية ولا متحجِّرة إنها تتلقى الدرس وتتعلم.

١٣

فاجأني كمال بتذكرتي سفر إلى أوروبا بمناسبة العيد الثلاثين لزواجنا. فرحت كثيرا بالمفاجأة.

صحبنا الأولاد إلى المطار وهمس كمال في أذني ونحن نودعهم. «لقد كنت صارمة مع سوسن بما يكفي.. دعينا نسافر الآن والكل في وئام لأجل خاطري». احتضنت خديجة وكريم وقبلت زينب وسعد ومجدي، وسلمت على سوسن.. لم أقبلها.

حملتنا الطائرة السويسرية إلى مطار زيورخ الذي قضينا فيه ساعة، ثم ركبنا طائرة أخرى إلى جنيف، وبعدها أوصلتنا سيارة أجرة إلى الفندق. دخلنا يتبعنا أحد العاملين يحمل حقيبتنا. سألني كمال «ما رأيك؟». كان المكان لائقا تماما. بهو رحب يغطي أرضيته من الجدار إلى الجدار، بساط رمادي به تشكيلات زرقاء وتضيئه ثريات ضخمة من البلور الثمين. أعطى موظف الاستقبال مفتاح الحجرة لكمال فصعدنا.

فتحنا الباب على حجرة فسيحة أنيقة الأثاث لها واجهة زجاجية تفضي إلى شرفة تطل على بحيرة ليمان. دخل كمال الحمام ووقفت

في الشرفة أتأمل ماء البحيرة والمراكب السابحة فيها والنوارس. ثلاثون سنة مرت على زواجنا، فكيف مرت؟ يقولون: «ما الذي تفعلينه يا خديجة للاحتفاظ بنضارتك؟» يضحكون.. «إنك كالقطط تأكلين السنين وتنكرينها» فأضحك وأقول: «أنا في السادسة والأربعين، لا أنكر، وحفيدتي خديجة في الثالثة عشرة. وبعد عامين أو ثلاثة أزوجها وأحمل بين ذراعي أبناءها».. ثلاثون عاما مرت ولكن المدينة تعيد الأيام حية وحاضرة كأنها لم تمض. البنت الصغيرة وقد عادت بلا ضفائر تركض مع عريسها، تركض وراءه وتلهث انبهارا من حديثه ومعارفه ومداعباته.. حدقت في الصفحة الزرقاء المتموجة فانبعثت الصغيرة التي كنتها، فرحت أراقبها وأبتسم، أبتسم كأنني أشاهد ابنتي أو حفيدتي الصغيرة تشهق في الحب كأنما غطتها فجأة موجة عالية ثم أطلت برأسها منها موزعة بين الدوار ونشوة اللعب، مبللة مبتهجة وطفلة.

يقول كمال إنني في الحب ملكة! فأضحك ولا أقول له إنه لم يعد في الحب ملكا. إنه في الثانية والستين ولكنه طيب يحنو عليّ ويعطيني كل ما أريد ولا يقول لي أبدا «لا».

خرج من الحمام وناداني فدخلت أنا لأستحم. حمام فسيح وجميل وبه مرآة تغطي حائطا بأكمله. تحممت بالماء الساخن من دون أن أبلل شعري. وعندما انتهيت وقفت أمام المرآة لأتنشف. ليس صحيحا أنني آكل السنوات. بالبطن شيء من ترهل وبالثديين أيضا. ولكن هكذا، لففت جسدي بالمنشفة الكبيرة. لا يبدو شيء من ذلك. الجسد متماسك وامتلاؤه محبب. جلست أمام المرآة. كحلت عيني

وصبغت شفتي بحمرة قانية. تعطرت وصففت شعري ثم لبست ثوبا زيتونيا. قال كمال: «تبدين كعروس». ضحكت ونزلنا للعشاء.

أقضي معظم النهار في زيارة محلات الملابس. أحب الفرجة وأحب الشراء. وبعد الظهر نتمشى على البحيرة، ونتناول العشاء في مطعم مختلف كل ليلة. يسحرني هدوء المدينة ونظافتها. أقول لكمال: «لماذا لم يخلق الله مصر بهذا الجمال؟». فيجيبني مبتسما: «إرادة ربنا!». أقول: «أحيانا تخطر لي فكرة مجنونة.. أن نركِّب للمستشفي عجلا وندفع به هكذا كما هو إلى شاطئ ليمان.. وآتي بالأولاد ونستقر هنا! فيقهقه كمال: «فعلا فكرة مجنونة».

«خديجة محظوظة» قلت لكمال وأنا أريه الثوب الذي اشتريته لها. ثوب من المخمل الثمين كحلي اللون يحيط بخصره حزام من الحرير اللامع، كحلي بنفس لون الثوب، وله ياقة من الدانتيلا المشغولة يدويا من خيوط دقيقة بيضاء.. «إنه غالي الثمن، ولكنه جميل يليق بالأميرات!». فردت أمام كمال كل مشترياتي الأخرى: ثوب لزينب، آخر لراندا، سترة لسعد، ربطة عنق لمجدي ولعبة لكريم. قال: «وسوسن؟»، قلت: «لم أجد شيئا يناسبها».

قضينا عشرة أيام في جنيف ثم ركبنا القطار السريع إلى باريس. بعد أربع ساعات وصلنا العاصمة الفرنسية ونزلنا في فندق بالشانزلزيه يفوق الفندق الذي أقمنا به في جنيف فخامة وثراء. باريس جميلة ومبهجة، ولقد حلمت دائما بزيارتها. أحب المشي في الشوارع التجارية وأحب المشاهدة.. ولكن المشي الكثير يرهق كمال فنضطر للجلوس بأحد المقاهي وأحيانا نأخذ سيارة أجرة ونعود مباشرة

للفندق. لذلك أفضل أن أتركه بالفندق وأنزل وحدي لكي أمشي كما يحلو لي. لحسن الحظ أن لكمال أصدقاء في باريس يأتون إلينا أو نذهب إليهم.

عدت من السوق فوجدت رسالة من كمال يقول لي فيها إنه ذهب لشراء الجرائد ويطلب مني أن أنتظره. «الأمر مهم. أرجو عدم الخروج ثانية». صعدت إلى الحجرة ووضعت أكياس المشتريات على السرير وغسلت يدي ووجهي.. ثم طلبت فنجان قهوة وجلست أدخن وأنتظر. ترى ما هو الأمر المهم؟ من المؤكد أنه لا يتعلق بالأولاد وإلا لما ذهب لشراء الجرائد وبقي ينتظرني في الفندق. تأخر كمال. لماذا تأخر؟ هل أصاب سوسن مكروه؟ تركت الغرفة ونزلت إلى الاستقبال. انتظرت قليلاً. ثم تركت خبرا أنني في المقهى. جلست بحيث أرى الداخل.

رأيته قادما وكانت الجرائد بيديه. من وجهه عرفت أن شيئا ما حدث فقمت إليه. أخبرني أن أحد معارفه كان يزوره وقال له إن الدنيا في مصر «قايمة» وإن السادات أصدر قرارات اعتقال شملت الآلاف بينهم جماعات إسلامية ورجال دين مسيحي وشيوعيون وناصريون ووفديون. قال: «كل ذلك حدث منذ أكثر من أسبوع ولأننا لا نقرأ جرائد، لم نعرف!».

- ولماذا لم تتصل بالقاهرة؟

- قلت أشتري الجرائد لأعرف التفاصيل لأنه ما دام الوضع كذلك فقد لا نستطيع الاستفسار عن الأمر بشكل مباشر عبر التليفون.

- أي أمر؟ وأي استفسار؟ نحن نريد الاطمئنان على الأولاد

فقط! لا علاقة لنا بالسياسة ولا بالجماعات الإسلامية أو المسيحية أو العفاريت الزرق. الأولاد كل ما يهمنا. سأذهب للاتصال.

كنت نافدة الصبر وحادة، وقلقة على سوسن.

- انتظري دقيقة.. سأتي معك.

طلبت من موظف الاستقبال أن يطلب لنا القاهرة. «سنكون بالحجرة». جاءتنا المكالمة وكانت سوسن هي التي ردت علينا فاطمأننت. سألتها عن إخوتها فقالت إنهم بخير. فأعطيت التليفون لكمال.

كمال عاطفي. أرى الدموع في عينيه وهو يتحدث مع سوسن بالتليفون. ثم يسأل عن سعد ويكلمه ثم أكلمه ونضع السماعة.

أشعلت سيجارة وقلت لكمال إن صديقه هذا أهوج لأنه أقلقنا بلا داع! عندما رأيتك تدخل من باب المقهى فكرت أن أحد الأولاد أصيب في حادث أو أن حريقا شب في المستشفى. الحمد لله حصل خير

ولكن كمال ظل قلقا وازداد قلقه عندما حمل له أحد أصدقائه جرائد الأيام السابقة الصادرة في مصر والمنشور فيها القرارات الجمهورية بالاعتقالات ونقل الصحفيين وأساتذة الجامعة. قال:

- انظري إنها قائمة بأسماء ١٥٣١ شخصا كلهم اعتقلوا.

- هل تعرف أحدا منهم؟

- شخصيا لا لكن العديد منهم شخصيات عامة ومعروفة. هذا إجراء خطير سيسبب للسادات مشاكل وربما لنا نحن أيضا.

- أنت تبالغ يا كمال! لقد زادتها المعارضة، وهو يصفي حساباته معها. أما نحن فليس لنا لا في الثور ولا في الطحين. لا علاقة لنا بالسياسة.

- ما حدث خطير.

- ليس خطيرا، انس كل ذلك الآن واستمتع بإجازتك.

وأخذت منه الجرائد ومزقتها في سلة المهملات وقلت له إنني أريد أن أقضي السهرة في «المولان روج»! فضحك وقال: «سيذهب ثمن التذكرة في الهواء. ستقومين من نصف العرض وتقولين إنه بذيء!». قلت وأنا أضحك: «هذه المرة سأتشجع وأتحمل العرض حتى نهايته في مقابل ما دفعناه!». فضحك.

باريس كعبة الدنيا، مدينة النور بحق. كالعروس نهارا وليلا. واجهات المحلات، السلع الثمينة، المقاهي الأنيقة، الفنادق الفخمة، الملاهي، كلها تتلألأ وتملأ القلب بهجة. أتمنى لو كان كمال أصغر سنا.. لو كان عفيا قادرا على مواكبة خطواتي.. يحيط كتفي بذراعه ونسير في الشوارع معا كأننا في مقتبل العمر.

في طريق عودتنا إلى القاهرة حملنا القطار السريع من باريس إلى جنيف حيث أمضينا الليلة. وفي الصباح توجهنا إلى المطار وكان الطقس باردا والمطر غزيرا. قلت لكمال: «تشعث شعري من البلل والرطوبة. سأصل القاهرة في صورة غير لائقة». تمنيت أن يتسع لي الوقت في المطار لتصفيف شعري في محل التجميل الذي رأيته عند وصولي.. ولكنه لم يتسع.

وصلنا المطار قبل إقلاع الطائرة بأقل من ساعة. سلمنا حقائبنا واشترى كمال بعض الجرائد والمجلات. ثم نادوا على ركاب الطائرة السويسرية المتجهة إلى أثينا والقاهرة. أقلعت الطائرة في موعدها، وقال كمال وهو ينظر إلى ساعته: «إن وصلت الطائرة إلى أثينا وأقلعت منها في الوقت المحدد نبلغ القاهرة في الثالثة بعد الظهر». تصورت كل الأولاد في انتظارنا. رأيت نفسي وأنا وكمال نخرج من صالة المسافرين ندفع أمامنا حاملة الأمتعة ثم نلمح الأولاد من وراء الزجاج الفاصل ونخرج إليهم ونعانقهم. سألني كمال: «لماذا تضحكين؟». قلت: «سعيدة بلقاء الأولاد».

بعد ساعتين ونصف الساعة حطت الطائرة في مطار أثينا وأعلنت المضيفة أن على جميع الركاب مغادرة الطائرة بما في ذلك الركاب المتجهون إلى القاهرة. فلما استعلمنا عن الأمر قيل لنا إن هناك تأخيرا في موعد الإقلاع. فكرت ونحن ننزل إلى المطار أنه بإمكاني لو كان علينا أن ننتظر أكثر من ساعة أن أصفف شعري حتى يبدو لائقا.

وجدت مطار أثينا مختلفا عن المطارات السويسرية. بدا لي أقل رونقا وجمالا فقلت ملحوظتي لكمال فعلق مبتسما: «كلما اتجهت شرقا وجنوبا شحب الضوء». قلت وأنا أهز رأسي موافقة: «صحيح». بحثت عن محل لتصفيف الشعر فلم أجد. أسفت لذلك ودخلت إلى دورة المياه لإصلاح هيئتي بالقدر الممكن.

طال انتظارنا. قيل لنا إن مطار القاهرة مغلق ولكنهم لم يقولوا لنا السبب. حاولنا الاتصال تلفونيا ولم نفلح. ثم وصلت إلى أثينا

طائرتان إحداهما قادمة من العراق والأخرى من ليبيا فامتلأ المطار بركاب مصريين. أوضح لي كمال:

- إنهم من العمال والفلاحين المصريين الذين يعملون في الدول العربية. ولأن الطيران المباشر بين مصر وهذه الدول متوقف بسبب ما بينها من خلافات سياسية فإنهم يركبون إلى أثينا ومنها إلى القاهرة.

- غريب.

- فعلا غريب أن يسافروا من ليبيا إلى مصر عبر اليونان فيطيروا شمالا ثم جنوبا مرة أخرى.

- لم أقصد ذلك، أقصد شكلهم غريب.

- قلت لك إنهم أناس فقراء سافروا بحثا عن لقمة الخبز.

كانوا الآن يملئون المطار. رجال بالجلاليب البلدية أو البدل القديمة، ونساء ريفيات أو من قاع المدن في ذيل كل واحدة طفلان أو ثلاثة، منهم من يبكي ومنهم من يضحك ومنهم من يركض بصخب ومنهم من أخرجت أمه ثديها وراحت ترضعه هكذا علنا وسط المطار.. غريب!

نبهني كمال إلى أني أدخن أكثر مما يجب وقال: «لا تقلقي ربما كانت عاصفة رملية أدت إلى إغلاق المطار في القاهرة».

قمت إلى دورة المياه وكنت أغسل يدي بعد قضاء حاجتي عندما دخلت امرأة تلبس ثوبا نيليا أزرق ويتدلى من أذنها قرط ذهبي على شكل مخرطة من ذلك النوع الشائع في أرياف مصر وتربط رأسها بمنديل، وكان معها طفل صغير. تطلعت المرأة في وجهي وسألت:

- حضرتك من مصر؟

فأومأت لها برأسي. فقالت:

- يعني بتتكلمي عربي.

- نعم.

مدت لي المرأة يدها بحماس لمصافحتي.

- أهلا وسهلا.. وحضرتك مسافرة من مصر أو راجعة لها؟

- راجعة.

- والأفندي بيشتغل في الخارج؟

قلت بتحفظ:

- لا

قالت وكأنها لم تلاحظ أني أريد أن أذهب:

- أبو عيالي بيشتغل في العراق وأنا وهو والعيال راجعين مصر إجازة. وصلنا من ساعة وبيقولوا الطيارات واقفة والمطار مقفول لأن السادات انضرب بالنار.

- السادات؟

- انضرب بالنار.

قالت المرأة وهي تنحني على طفلها وتنزع عنه ملابسه المتسخة:

- الرجالة سمعوا في الراديوهات أنه وهو قاعد في وسط الحكومة والبهوات والعسكر والحراس لابس المقصب والمذهب طلع عليه

عسكري قال له: «جالك الموت، خد!». وضربه بالرصاص. السادات مال وانكفى، مات ما ماتش؟ لسه الخبر ما وصلش!

راعني كلام المرأة كما راعني ذلك الهدوء الذي كانت تتحدث به وهي تمسح لطفلها مؤخرته وتغسلها وتلبسه ملابس نظيفة. تركتها وهرولت إلى كمال لأبلغه بما سمعت.. فامتقع وجهه! وسأل:

- انقلاب؟

- لا أدري.

- لم تخبرك بأي شيء غير ذلك؟

- نعم، لم تخبرني.

بحثنا عن تلفزيون بالمطار لعلنا نتمكن من مشاهدة نشرة إخبارية. ولما وجدناه لم نجد أي برنامج إخباري. ساعتها اقترح كمال أن نسأل أحد الشباب المصريين الذين يحملون معهم أجهزة راديو، وفعلنا. أكد الشاب ما سمعته وقال إن السادات أُطلِق عليه النار فعلا في أثناء مشاهدته العرض العسكري المقام بمناسبة السادس من أكتوبر. وقال إن الإذاعات الأجنبية والعربية أذاعت الخبر كما أذاعت أنه منذ نقل السادات إلى المستشفى في الواحدة ظهرا لم يعلن جديد. ويتردد كلام أنه أصيب في يده وكلام آخر أنه قُتِل.

في السادسة إلا خمس دقائق عدنا للجلوس بجوار الشاب، ولاحظت أن كل المصريين قد تحلقوا في مجموعات حول من يحملون أجهزة راديو. قال رجل نحيل له وجه متغضن وشارب فضي كث:

- لو لم يمت السادات فستكون مصيبة لأنه سيبطش بمعارضيه.

- يبطش أكثر من ذلك؟

قالها شاب باستنكار واضح. فأجابه الرجل النحيل:

- نعم سيبطش أكثر.. سيصبح في المسألة أحكام بالإعدام والمؤبد. ستتحول إلى ثأر شخصي.. «حاولوا قتلي! إذن سأجعلهم يدفعون الثمن غاليا!».

- لا أظن.

قالها أحد الرجال الجالسين متدخلا لأول مرة في الحديث.. وعاد يكرر «لا أظن». ولم أفهم ماذا كان يقصد بالضبط وتمتم شخص رابع:

- ربنا يستر!

دقت الساعة معلنة السادسة. ولثوان خيم على المكان صمت مطبق وأصخنا السمع. ثم أعلن المذيع: «تأكد الآن أن الرئيس المصري محمد أنور السادات قد توفي إثر حادث الاغتيال الذي تعرض له ظهر اليوم. وقد صدر في مصر البيان التالي...

لم أكن قد أفقت من الصدمة عندما سمعت زغرودة مجلجلة. كانت امرأة متوسطة العمر تلبس نظارة طبية وتحيط رأسها بضفيرتين سميكتين هي التي تزغرد وتردد بانفعال أنه راح وانتهى. ورغم زغاريدها فقد كانت الدموع تسيل من عينيها، فرجحت أنها مجنونة. ثم سمعت امرأة تلبس جلبابا ريفيا أسود تنادي عليها من موقعها وسط مجموعة متحلقة حول مذياع آخر:

- يا ست ياللي بتزغردي الشماتة في الموت حرام.. مات «الله يرحمه!»، افترى في العباد.. له رب يحاسبه ويتولاه.

ولكن المرأة المجنونة كانت تكرر أنه راح وأخذ معه الأيام السوداء. وكانت تبكي. كان الجميع يتحدثون الآن بعضهم مع بعض ومع أنفسهم. وألصق الشباب الذين يحملون راديو آذانهم بالأجهزة التي معهم لعلهم يلتقطون تفاصيل أخرى ينقلونها لمن حولهم.

سحبني كمال من يدي وانتحى بي جانبا وهمس في أذني: «هذا ما كنت أخشاه، ربنا يستر!». فحدقت به مستفهمة. كنت مضطربة إلى حد عدم الفهم. وشعرت بتعب شديد يتملكني ورغبة ملحة في العودة إلى بيتي والنوم في سريري.

طلبت من كمال سيجارة وكان لا يدخن إلا نادرا. كان مقطب الوجه يبدو عليه القلق الشديد. أما أنا فكنت أفكر في السادات المسكين، وتذكَّرته حين أتى لزيارة ابنته في المستشفى وشرب القهوة معنا. تذكرت النظرة الحانية في عينيه وهو يودع ابنته. وتذكرت زوجته فطفرت الدمعة من عيني وأخرجت منديلا من حقيبتي وتمخطت.

قال كمال. «قلت لك بأن الأمر لن يمر بسلام، كان تصرفه الأخير حماقة، مقامرة مجنونة قد نضطر نحن لدفع ثمنها!». لم أفهم شيئا مما يقوله ولكنه كان يضرب كفا بكف ويتمتم «ربنا يستر!».

لم ينادوا علينا لركوب الطائرة قبل أربع ساعات. في الأتوبيس الذي حملنا إلى الطائرة كان الركاب يثرثرون بشكل عادي كأن شيئا لم يحدث. أما في الطائرة فقد لفهم الصمت. كانت رحلة قصيرة استغرقت أقل من ساعتين.

في مطار القاهرة بدا كل شيء عاديا. قام رجال الشرطة بإجراءات الدخول المعتادة ولكننا عندما خرجنا إلى المدينة وجدناها ساكنة تماما. ولم يكن في الشوارع سوى أفراد من القوات المسلحة وحرس المنشآت. وقال كمال: «يبدو أن هناك حظر تجول». وكان ذلك صحيحا لأنهم أوقفونا في الطريق. ولما رأوا جوازي السفر عليهما أختام الوصول سمحوا لنا بالمرور.

وأخيرا وصلنا إلى البيت. وما أن أدار كمال المفتاح في الباب حتى سمعت سعدا يهتف: «وصلوا!». كانوا جميعا بانتظارنا: زينب وسوسن وسعد ومجدي والصغيران. التفوا حولنا نتبادل القبلات. وقالت سوسن وهي تضحك: «الآن آتي لكم بالشربات»، وضحكت. ولم أفهم ما تقصده إلا عندما أوضحت زينب أن سوسن مغتبطة لموت السادات. فكرت في توبيخها ولكني عدلت «لا داعي لخلق توتر جديد بيننا». قلت للأولاد وأنا أضحك: «لولا تأخيرنا في مطار أثينا لكان كل شيء رائعا.. كانت رحلة العمر تعالوا أريكم الهدايا التي أحضرتها لكم».

١٤

الحمد لله لم يحدث شيء. بعد حادث اغتيال السادات كان كمال متوجسا يتابع الأخبار بشكل يومي ليعرف إلى أين تتجه سياسات الحكومة. لم أكن أرى داعيا لقلقه فما دخلنا نحن بمصير رئيس يرحل وآخر يجيء؟ لا علاقة لنا بالسياسة ولم يكن لنا علاقة بها في أي وقت.. فلماذا القلق إذن؟ ولكن كمال كان قلقا.

لم يحدث شيء. المستشفى يزدهر. كل صغيرة وكبيرة فيه كما يجب ويليق، نظامه في دقة الساعة، نظافته مضرب الأمثال، تطور أجهزته بلا منافس، طاقم أطبائه هو الأكفأ في البلد. «نموذج للمشروع الاقتصادي الناجح» هذا ما يقوله الناس.. ويعلق كمال «خديجة وراء كل ذلك!». فأجيبه بأنه يبالغ.

المستشفى هو كل شيء. أستغرب أنه كانت لي حياة سابقة على وجوده، وأفزع لفكرة أن أكون ولا يكون، كأنني لبلابة تنمو وتتفرع على جداره الهائل، أعطيه كل شيء. وهو يعطي حياتي الحياة، فما الذي كان يصيبني لو لم يكن هناك؟ زينب منشغلة بزوجها والصغيرين، وسوسن غائبة ولا تحمل في حضورها سوى النكد

والغم، وسعد ركب رأسه وأصر على العمل في الإسكندرية بعد تخرجه. قلت لأبيه: «أقنعه، اضغط عليه، قل له إن ذهب تكن غاضبا عليه». ولكن كمال كعادته مع الأولاد يتركهم يفعلون ما يشاءون حتى لو كان ذلك في غير صالحهم. أخذ سعد عروسه وذهبا إلى الإسكندرية للعمل والإقامة. وكمال بدأ ينسحب تدريجيا ليس فقط من العمل في المستشفى بل ومن الحياة العامة أيضا.. فهو لا يفضل قبول الدعوات على العشاء وحفلات الاستقبال، ولا يذهب إلى المستشفى إلا مرتين في الأسبوع، مرة لإجراء جراحات وأخرى لعيادة مرضاه. وأعرف أنه يشعر بالملل لجلوسه منفردا في البيت طوال اليوم.. فأنا أمضي النهار في المستشفى من الثامنة صباحا حتى الثالثة بعد الظهر، وأشجعه على الخروج كل صباح ليجلس في حديقة جروبي أو مقهى فندق شبرد، وأعرض عليه أن أترك له السيارة والسائق فيقول إنه يفضل أن يمشي ما دامت المسافات قصيرة، لأن ذلك يفيده ويساعده على قطع الوقت.

تقدم العمر بكمال فلم يعد يأكل ولا ينام كما كان يفعل في الماضي.. لقمتان ويقول شبعت. ساعات قليلة ينامها ثم يصحو مع الفجر في الغالب، وعندما أستيقظ أجده شرب الشاي وقرأ الصحف كلها. كمال يخطو في شيخوخته وحيدا والأولاد يخذلون. زينب أفضلهم لأنها الأقرب والأكثر سؤالا عن أبيها وعني. أما سعد فقد ترك أباه ليعيش في الإسكندرية لمجرد عناد أحمق وسخيف. قال أبوه: «اتركيه إنها مرحلة وتمر». ولكني لا أصدقه لأن هذا هو بالضبط ما قاله عن سوسن ولكنها لم تمر وبقيت البنت على حالها، وكان من الأجدى الإمساك بزمامها بقوة وحزم ما دامت

طبيعتها جامحة في الخطأ. الآن فات الوقت وأفلتت البنت وكان الذي كان.

عندما أعلنت أنها سوف تستقل بحياتها وتقيم بمفردها كان الكيل قد فاض فقلت لها: «افعلي ما بدا لك أنت حرة! ولكن اعلمي أنني لست راضية عما تفعلين. أسقطتك من حسابي ولم أعد أهتم». وعندما حكيت لكمال قال لي إن كلامي شديد القسوة وإن البنت لا بد أنها تألمت ألما شديدا. فقلت له إنها طائشة ومجنونة ولا يؤثر فيها شيء.. «هل تتصور أنها أنصتت لما أقول؟ إنها لا تسمع إلا ما في رأسها». هذه البنت مشكلة بلا حل فكيف أجد لها حلا؟ كادت تبلغ الثلاثين ولم تتزوج.. لماذا؟ لا أفهم. كلما اخترت لها عريسا سخرت ليس فقط منه بل ومن الفكرة ذاتها! فهل تدخل الدير وتصبح راهبة؟ أليست كباقي البنات تريد رجلا تحبه وتسكن إليه وتملأ عليه بيته بالأطفال؟ ولكنها لا تفكر بهذا الشكل.. فكيف تفكر وما الذي تريده؟

أبوها لا يوافق على ما تفعله ولكنه يجد لها الأعذار والمبررات وينهي أي مناقشة بيننا بشأنها بنفس العبارات: «دعيها، هذه حياتها ومن حقها أن تفعل بها ما تريد!». كمال هو السبب. هو الذي حال دون أن ألجم هذه البنت وأشد اللجام بما يناسب طيشها وطموحها.. الآن تأخر الوقت، فهل فشلت في تربية أولادي، أم أن الأولاد هكذا يكبرون ويركبهم عنادهم ويجنحون بعيدا عن أمهم التي أنبتتهم وعاشت سنوات عمرها ترعى وتكبر وعيناها وروحها متعلقة بفروعهم النامية؟ قد أكون فشلت في تربيتهم..

في المستشفى لم أفشل. يطلقون عليّ «الملكة». يقولون: «جاءت الملكة».. «ذهبت الملكة».. «قالت الملكة».. حين سمعت بذلك للمرة الأولى استغربت وضحكت وبدت لي المسألة طريفة، ولكني الآن اعتدت الاسم وهو يملؤني اعتزازا، لأني أعرف أن وراءه تقدير الأطباء والعاملين بالمستشفى لما أقوم به من جهد يجعل المكان شبيها بمملكة فاضلة يحكمها النظام والدقة والكفاءة تماما كما يجب ويليق.

الجزء الثاني

سوسن

١

إنه عيد ميلادها الخمسون وكلي رغبة في إسعادها. سأتحمم وأعتني بتصفيف شعري وألبس ثوب المناسبات وأشتري حذاء جديدا فتعرف أنني أهتم.. ويسعدها ذلك.

رافقتني صديقتي سميرة إلى السوق وتأملنا معا الواجهات الزجاجية لمحلات الأحذية. أشارت سميرة إلى حذاء أسود لامع مقدمته مصنوعة من سيور جلدية دقيقة متداخلة.

- ما رأيك؟

- جميل لولا كعبه.

كان للحذاء كعب مدبب رفيع يرتفع عن الأرض ما لا يقل عن سبعة سنتيمترات.

- لن ترتديه كل يوم، إنه حذاء للمناسبات.

- سأتعثر في المشي به!

- بالعكس، سوف يحولك إلى امرأة محترمة، تمشي ببطء أنثوي وتحوز على رضا «البهوات» وتجلس بينهم بكل ثقة كأنها واحدة منهم!

ورغم أنها كانت تضحك فقد جذبتني باتجاه باب المحل فدخلنا وطلبنا الحذاء. قسته فوجدته ضاغطا على قدمي، ولكن البائع أكد أن المقاس مناسب: «أيام قليلة ويلين ويصبح مريحا». أبقيته في قدمي ودفعت ثمنه، ثم بحثنا عن هديتين مناسبتين لأمي وخديجة أبنة زينب لأن الاحتفال كان بمناسبة عيد ميلاد الاثنتين. بعدها تركتني سميرة وتوجهت أنا إلى منزل أهلي.

ألقيت نظرة مطمئنة على حذائي الجديد ثم ضغطت على الجرس. فتح الباب خادم لا أعرفه قال: «تفضلي البهوات في الصالون». دخلت فوجدت أن زينب وخديجة جالستان وحدهما في كامل زينتهما. تبادلنا السلام والقبلات وقدمت الهديتين.

كانت أمي تلبس ثوبا حريريا في لون خشب الورد يكشف عن نحرها وذراعيها ويلف جسدها ويكسمه. وتتزين بالماس: عقد على جيدها وقرط في أذنيها وخاتم في بنصرها الأيمن. ثم جاء أبي وكان كعهده في الشهور الأخيرة يتكئ على عصاه. ولاحظت أنه ازداد شحوبا ونحولا دخل رجلان وامرأتان لا أعرفهما ثم لحق بهم آخرون. امتلأت المقاعد بالضيوف، نساء في ملابس السهرة تفوح منهن روائح العطور، ورجال في حلل داكنة وقمصان بيضاء وربطات عنق نقشها رزين. النساء يرتدين أحذية سوداء لامعة لها كعوب رفيعة كالحذاء الذي بقدمي.. لكن الحذاء الذي بقدمي كان يؤلمني ألما حقيقيا فهل كانت أحذيتهن أيضا تؤلم؟

شعرت بالإرهاق والوحشة. بحثت عن أمي وزينب فوجدتهما في حجرة المائدة. سألتهما إن كانتا تريدان مساعدة فقالتا إنهما لا تريدان.

تركتهما. دخلت الحمام وخلعت الحذاء. كان الاحتكاك المستمر بجلدي قد ألهب عرقوب القدم ومفصل الأصبع الكبير الذي بدت عليه حزوز حمراء كأنه جرح بسكين. دفعت بقطعة صغيرة من القطن داخل كل فردة لتحمي جلدي الملتهب وأدخلت قدمي. بات المشي مستحيلا. خلعت الحذاء وبحثت عن شيء أضعه في قدمي فوجدت «شبشب» مصنوعا من المطاط ارتديته وعدت به إلى الصالون. لاحظت زينب الأمر في الحال فهتفت في استنكار:

- أين حذاؤك؟

- لقد اشتريته اليوم وهو ضيق وجلده قاس.

- ولكن هذا شبشب الشغالة!

لم نواصل لأن أمي جاءت تدعو الضيوف إلى مائدة العشاء ووجدت نفسي غير راغبة في الطعام أتثاءب بقوة وبي رغبة في النوم. تركت الصالون ودخلت الحجرة التي كانت لي ولزينب وألقيت بنفسي على أحد السريرين ورحت في النوم.

عندما غادرت بيت أهلي لم تكن الساعة قد تجاوزت السادسة والنصف صباحا. سرت على أطراف أصابعي وأغلقت الباب خلفي في هدوء حتى لا أوقظ أحدا. كان الميدان خاليا إلا من بائع الحليب يدق جرس دراجته وامرأة تهرول. بدا التمثال في تلك الساعة المبكرة من الصباح أليفا تماما كما كان أيام طفولتنا.

أنا وزينب ننزل كل صباح للذهاب إلى المدرسة، نقف أمام بوابة البيت نثرثر ونقضم «الساندويتشات» وننتظر. ثم نسمع صوت موتور الأتوبيس فنلتفت باتجاه شارع قصر النيل ونجده قادما. نحمل حقائبنا

المدرسية الثقيلة ونستعد. عندما يتوقف نصعد ونقول بصوت واحد تقريبا «صباح الخير»! ثم نجلس متجاورتين.

في الصغر كنا ننام في نفس السرير ولا نلعب إلا معا. عندما كبرنا بعض الشيء صار لنا سريران متجاوران ومكتبان صغيران متلاصقان. نستيقظ معا في الصباح ومعا ندخل الحمام. إحدانا تجلس لقضاء حاجتها والأخرى تغسل وجهها وتفرش أسنانها. نرتدي ملابسنا في نفس الوقت. وفي نفس الوقت ننزل. درسنا على أيدي نفس المدرسات. قرأنا ذات المقررات.. فلماذا أصبحت زينب هي زينب وأصبحت أنا سوسن؟ وفي أي لحظة من حياتنا تفرع مجرى العمرين؟

ضبطت نفسي أتأملها بعين المشاهد الغريب، وهي أختي التي كنت أسر إليها بكل أشيائي الصغيرة التي لا أجرؤ على قولها لسواها، والتي كنت حين أرى حلما مفزعا أوقظها لأصرح لها بخوفي. تهدئني وتحتضنني فأنام بجوارها مطمئنة. ضبطت نفسي أنظر إليها نظرة الغريب إلى الغريب. كيف بدأ الأمر؟ كيف تراكم؟ وهل الاختلاف يأتي بالوحشة؟ وما الذي يباعد بين مجرى ومجرى؟

«اسمي سوسن كمال الدين صفوت، وعنواني ١ ميدان مصطفى كامل الدور الثامن شقة ٨٢». لو ضعت يا ماما وقلت للناس اسمي والعنوان ألا يعيدونني إليك؟». كنت في الرابعة من عمري وربما حتى في الثالثة. كان اسم الميدان تماما كالميدان نفسه والتمثال الذي يتوسطه والعمارة التي تطل عليه ونسكنها لا تعني لي سوى الألفة والأمان: عنوان البيت.

وفي يوم كنا ننتظر سيارة المدرسة. ما الذي جعلنا نعبر لنلعب

حول التمثال؟ ربما كنا نلعب لعبة القط والفأر. أختفي حول التمثال وتحاول زينب الإمساك بي. ساعتها رأيت الكتابة. حاولت قراءتها ولم أفلح فطلبت منها أن تفعل. كانت في السنة الرابعة الابتدائية وتحسن القراءة، قرأت: «مصطفي كامل باشا ١٨٧٤ - ١٩٠٨». وعلى الجانب الأيمن: «لا معنى للحياة مع اليأس ولا معنى لليأس مع الحياة». ومن الجهة اليسرى: «إن من يتسامح في حقوق بلاده ولو مرة يبقى أبد الدهر مزعزع العقيدة سقيم الوجدان». وعلى ظهر التمثال: «اكتتبت الأمة بجميع طبقاتها في صنع هذا التمثال سنة ١٩١٠ وفي سنة ١٩٣٨ قررت الحكومة إقامته في هذا الميدان تمجيدا للذكرى».

قرأت زينب كل ذلك ولم أفهم سوى أنه كلام مبهم عن مصر التي نغني لها كل صباح ساعة رفع العلم في المدرسة. سألت زينب فقالت إنها لم تفهم شيئا. ثم سمعنا صوت موتور سيارة المدرسة فقالت باحتجاج: «أضعنا الوقت في قراءة كلام لا نفهمه، جاء الأتوبيس ولم نلعب!».

ثم نسيت الأمر أو بدا لي أنني نسيته حتى رأيت ذلك الفيلم في التلفزيون. كنت أحب مشاهدة الأفلام العربية بكل أنواعها: الأفلام المضحكة التي يتنكر فيها البطل في ثوب امرأة، والأفلام المحزنة التي تبكي فيها البطلة المظلومة بصوت متهدج وهي تكرر أن الله هو المنتقم، وأفلام المغامرات التي يتعارك فيها الطيب والشرير ويحطمان كراسي المقهى على رءوس الرواد، والأفلام العاطفية التي يغني فيها الحبيبان عن الحب والعصافير. في ذلك اليوم طلبت من زينب أن تقرأ في الجريدة اسم الفيلم الذي سيذاع عصرا في التلفزيون

فقالت: «مصطفى كامل». تأففت: «لن نضحك ولن نسمع أغاني ولن نفهم شيئا!». ولكننا ما أن عدنا من المدرسة بعد ظهر الخميس وبدلنا ملابسنا وأكلنا حتى بدأنا ننتظر موعد عرض الفيلم.

شاهدنا الشاب الوسيم الذي كان اسمه مصطفى كامل وتابعنا حكايته ورنة صوته وإيقاع كلماته وهو يخطب في الناس ويدق بيده اليمنى على المائدة التي أمامه. ورأينا الفتاة التي نسجت له علم مصر وأهدته له. وشاهدنا أجساد الفلاحين المتأرجحة على المشانق. وفي آخر الفيلم رقد البطل على فراش الموت ثم مات. بكت زينب وقالت بصوت مخنوق إنه فيلم حزين.

ثم أصبحت أقلد مصطفى كامل. ألبس طربوشا قديما كان لجدي صفوت وإحدى سترات أبي، وأضع كوب ماء على طاولة أقف وراءها أكرر كلماته بصوت جهوري وأدق بقبضتي على الطاولة فتضحك أمي وزينب ويصفق سعد.. وأحيانا يأتينا ضيوف فتناديني أمي وتقول: «قلدي مصطفى كامل يا سوسن»! فأقلده ويضحكون.

وربما في نفس تلك الفترة أو بعدها بسنة أعلن جمال عبد الناصر ما سمي بالقرارات الاشتراكية. كنا في الإسكندرية نقضي إجازتنا الصيفية مع أمي. وعندما عدنا إلى القاهرة كان الحديث بين جدي صفوت وجدي محمود يدور دائما حول «عبد الناصر الذي خرب البلد». ولم أكن أفهم معنى هذه القرارات، ولا لماذا يقولون إن فيها خراب البلد. كذلك لم أكن أعرف من الصادق في كلامه: هما أم مدرسة الموسيقى التي كانت تجمعنا في الحصة الأسبوعية وتجلس إلى البيانو وتعزف وتغني:

«وطني حبيبي وطني الأكبر

يوم عن يوم أمجـاده بتكبـر

وانتـصاراتـه ماليـة حياتـه

وطنـي بيكبـر وبيتحــرر».

ولم تكن مدرسة الموسيقى وحدها بل المدرسون الآخرون أيضا في حصص العربي والتاريخ والجغرافيا والتربية الوطنية في السنوات التالية يدرسوننا أن عبد الناصر بطل عظيم لأنه طرد الإنجليز من مصر وأمم القناة وحقق الاشتراكية التي تعني الكفاية والعدل، ولأنه سوف يحرر القدس من المحتلين، تماما كما فعل صلاح الدين من قبله.

هذا ما كنا ندرسه في المدرسة. أما في البيت فلم يكن أحد يحب عبد الناصر. كان ذلك واضحا على الرغم من أنه لا أمي ولا أبي كانا منشغلين بالسياسة والحديث في أمرها. ولم يكن الأمر يشغلني ولم يبد لي أنه يشغلني أكثر من زينب التي كنت أنتظر معها ليلة الاحتفال بثورة ٢٣ يوليو لنستمع إلى الأغاني الجديدة التي يقدمها عبد الحليم حافظ وشادية أمام جمال عبد الناصر في نادي الضباط، ونشاهد الحفل معا في التلفزيون، ونتابع العرض العسكري صباح اليوم التالي: تشكيلات الدبابات والمدرعات والصواريخ وطوابير الجنود وأسراب الطائرات المحلقة يعلق عليها مذيع بليغ تتخلل تعليقاته موسيقى المارشات العسكرية.

كان جدي صفوت يكرر أن ربنا من غضبه على مصر ولَّى عليها عبد الناصر. وكنت أنا وزينب نحب أغاني عبد الحليم حافظ ونتبارى في أداء أغنية أم كلثوم:

محلاك يا مصري وأنت ع الدفة

والنصرة عاملة في القناة زفة

يا ولاد بلدنا تعالوا ع الضفة

شاوروا لهم

غنوا لهم

وقولوا لهم

ريسنا قال.. مفيش محال

راح الدخيل وابن البلد كفى.

وعندما وقعت الواقعة وانهزم الجيش المصري في سيناء بكت زينب طويلا لأن سوء حظها جعل كل هذه المصائب تحدث في الأيام المحددة لإعلان خِطْبتها. أما أنا فركضت إلى الشارع كأن فيه النجاة من الموت.. ركضت بلا تفكير بدافع كالغريزة.. وأعادتني أمي عنوة كأني نعجة شاردة وقيدتني بالحبال. ليلتها قلت لزينب وأنا أحدق في الجدار:

- زينب..

- نعم.

- تعرفين؟

- ماذا؟

- أمي..

- مالها؟

- إنها تريد قتلي.

كانت عيناي مثبتتين على الجدار.

- هل جننت؟

- لا، إنها الحقيقة.

- سوسن لا تقولي ذلك.

لم تفهم زينب. ظننتها الأذكى. في المدرسة كانت الأكثر تفوقا تبذل مجهودا أقل وتحقق نتيجة أفضل. لماذا لم تفهم؟

كررت:

- أمي تريد قتلي يا زينب!

جلست إلى جواري وأمسكت بيدي بين يديها وقالت: «إنه الشيطان يا سوسن. إنه الشيطان يوسوس لا تستسلمي له». وبكت وقالت إنها خائفة. واحتضنتني وقبلتني. ثم قامت لتصنع لي كوبا من الليمون.

لم تفهمني زينب. ولكني لم أشعر بالغربة ولا رأيت علامات الانشقاق والتحول. فهل ولد الانشقاق لحظتها، أم أنه جاء بعد ذلك وأنا أحفر بأظافري بحثا عن الإجابات التي تروي؟

سبتمبر ١٩٦٧ اليوم الأول من العام الدراسي. في نهاية الحصة الثالثة دق الجرس ونزلنا للفسحة. لم أخرج إلى الفناء مع باقي الطالبات بل واصلت النزول على السلم الحلزوني حتى وصلت الطابق الأرضي حيث المكتبة.

الباب مفتوح.. قاعة فسيحة مستطيلة تغطي حوائطها أرفف الكتب. في الطرف المقابل للباب جلست أمينة المكتبة. اقتربت منها:

- صباح الخير! هل يمكن أن أستعير كتابا؟

- أي كتاب؟

تلعثمت:

- لا أدري بالضبط، ولكني أريد أن أقرأ في التاريخ.

قادتني إلى أحد الأركان وقالت وهي تشير إلى مجموعة من الأرفف «هنا».. ثم تركتني وعادت إلى مقعدها.

استعرت كتابا ضخما عليه صورة لرجل طويل يميز وجهه شارب أسود كث ويرتدي طربوشا غير مألوف الشكل وسترة طويلة بصفين من الأزرار النحاسية المتقابلة. وكان عنوان الكتاب «الثورة العرابية».

وبدأت أقرأ، أقرأ بنهم في الطريق إلى المدرسة وفي الطريق منها، في المساء بدلا من المذاكرة وفي الليل والكل نيام، أقرأ، أتابع تفاصيل الثورة، فعل عرابي ورجاله، وقفته في مواجهة الخديو بميدان عابدين: «أنتم عبيد إحساناتنا»، «لسنا عبيدا لأحد، لقد خلقنا الله أحرارا». تتجمع الأشواق كالفلاحين في جيش الثورة. تقوم وتنكسر ويأتي زمن الاحتلال. تحمل السفينة قادة الثورة إلى المنفى وهم يولون وجوههم شطر الشاطئ الذي يبتعد: «يا كنانة الله صبرا على الأذى حتى يأتي الله لك بالنصر». أبكي. تختلط الحروف أمام عيني فأمسح دموعي.. ولكني في النوم أبكي. توقظني زينب وتأتي

لي بكوب ماء أشرب. تقول إنه كابوس. تنصحني: «اقرئي الفاتحة قبل النوم فتتبدد الكوابيس».

١٨٨٢ لا تتبدد. البوارج في البحر تقصف الإسكندرية. الحصون لنا والبوارج علينا. تجفل روحي من قصف الغزاة لمدينة هي لي ملهى الطفولة. إسكندرية الأمواج واللعب تتوارى خلف الحصون. تصمد ثم لا تصمد. وعرابي في ظلام سجنه يسمع الصوت قبل أن يرى صاحبه.

- يا عرابي.

- ماذا تريد؟

- أتدري من أنا؟

- لا! أعلمني باسمك وماذا تريده مني في هذا الوقت؟

- أنا إبراهيم أغا يابن الكلب يا خنزير!

ثم يبصق على عرابي ويهينه!

فهل كانت هزيمة التل الكبير هي التي توجع، أم هزيمة الجيش في سيناء؟ شيء يجرح ويهين يلازمني في النهار فأواجهه بعناد شرس متخشب، وفي الليل يفيض دمعا يغمرني فأصير ككسرة خبز في الماء فتاتا هشا.

ليلة من ذات الليالي انتبهت زينب فسألتني:

- لماذا تبكين؟

- لا شيء.

- ولكن الدموع تبلل وجهك وعيناك حمراوان!

- لا شيء.

جلست بجواري وألحت في السؤال فقلت... أعلنت دهشتها.

- تبكين هكذا من كلام الكتب؟

- الإنسان لا يبكي إلا لأسباب حقيقية.

- سوسن إنك تكذبين. ماذا حدث؟ هل وقعت في الحب؟

٢

ذهبت اليوم لزيارتها. وكما في كل مرة ننفرد باللقاء. أعود وقد ركبني الغم والسؤال المربك المُلِحْ: «أليس هناك من طريقة لدرء تلك الوحشة التي تنتصب كالسلك الشائك بيننا؟». نلتقي فيجثم الصمت على صدرينا لا يقطعه إلا جمل منبتة.

لا شيء يجري، لا نهر، لا نبع، لا دائرة تواصل... لا شيء إلا تلك النظرة الصارمة التي تباغتني أحيانا بها... لحظة خاطفة يعقبها الانصراف والتجاهل.

لم تكن الأمور هكذا دائما.. في طفولتي المبكرة كانت هي كل شيء، ليس فقط لأن أبي كان غائبا في عمله نكاد لا نراه إلا يوم الجمعة، ولكن لأنها أعطت أيامنا شيئا من الفرح الصاخب لأطفال في مدينة للملاهي.. نضحك في طرب منتش ومستثار. وحتى عندما كنا نخطئ فتصرخ فينا كالغولة ونركض مذعورين كالأرانب نختفي في الأركان والزوايا كانت تصفو بسرعة مدهشة وتغمرنا في صخب جامح ترفعنا كأنها موجة في بحر الإسكندرية الكبير

فما الذي حدث بعد ذلك؟ حادث مؤسف أو أمر طبيعي؟ طلقة

أفزعت الطائر فهاجر بعيدا عن مدى الصياد..ولم يكن يوم قيدتني بالحبال إلى السرير إذ كنت منشغلة عنها وعن نفسي بالكارثة التي حلت. يوم آخر هو الذي أفزعني فركضت نافرة ومذعورة.

حدث الأمر بلا مقدمات. لم تتشاجر مع سعد. لم يصدر عنه شيء يستدعي العقاب. لم يجر نقاش يمهد لما فعلته. عاد سعد من مدرسته. دخل حجرته ثم خرج منها. وكنت أجلس بجوارها نشاهد تمثيلية في التلفزيون.

- ماما، أين أشيائي؟

أجابت دون أن ترفع عينيها عن التلفزيون:

- أنا والشغالة قمنا اليوم بترتيب حجرتك، ألا تقول شكرا؟

- والرسوم يا ماما، الرسوم والتماثيل، أين وضعتها؟

- تخلصت منها.

- تخلصت منها؟

كنت أنا التي سألت. سعد واقف أمامنا ممتقع الوجه كأنه سوف يسقط مغشيا عليه.

- لماذا يا أمي؟ لماذا؟

- لا قيمة لها.. لا معنى لها.. تشغلك عن دروسك وتجعل الحجرة كمقلب للقمامة.. أوراق وطين وجبس وخشب.. كراكيب تخلصنا منها.

- كيف؟

- أعطيتها للزبال.

أغلقت التلفزيون ووقفت في مواجهتها أصيح:

- ماما ماذا فعلتِ؟

- لا أسمح لك بمخاطبتي بهذا الشكل، كيف تجرؤين؟ هذه وقاحة!

أدرت لها ظهري ولحقت بسعد في غرفته وطرقت الباب بعنف. كان سعد جالسا على سريره مطأطئ الرأس. حاولت التحدث معه ولكنه بقي صامتا.. ثم انتبهت إلى الزجاج على الأرض وإلى يده النازفة. كان قد حطم كوبا زجاجيا زخرفه بنفسه ليضع فيه أقلامه على المكتب. ضغط عليه بيده حتى تحطم. أخذته ونزلت إلى أقرب صيدلية لعمل الإسعاف اللازم. بعدها أصيب بحمى استمرت عدة أيام وأعلنت أمي أن سعد جرح يده وذهب إلى صيدلي حمار لم يفلح في تنظيف الجرح فأدى ذلك إلى تلوث تسبب في هذه الحمى. قالت أمي هذا الكلام وظلت تعيده حتى صدقته.

عندما كنت صغيرة كانوا يقولون إنني أشبهها «الخالق الناطق خديجة»، «سوسن نسخة من أمها»! الآن لم أعد أشبهها. هي خديجة الملكة التي تدير المستشفى بصرامة قائد عسكري وتلبس ثياب الحرير الطبيعي التي تفصلها لها مدام لاورا الخياطة الإيطالية، وتتحلى بمشبك البلاتين المطعم بالماس أو بعقد اللؤلؤ الحر. وأنا سوسن ذات الحذاء المعفر يشغلها كتاب أو سؤال فتنسى شراء رغيف خبز للعشاء وتنتبه في الصباح إلى أنه لم يعد لديها قطعة سكر تحلي بها كوب الشاي.

لم أعد أشبهها.. ولذلك استغربت كلام مجدي عندما قال: «تشبهين أمك بشكل مدهش!». وأجبته: «كنت أشبهها. أما الآن فأختلف تمام الاختلاف». قال: «تشبهينها من الداخل، قوتك، عنادك، كلها منها وليس من أبيك!». وكان ذلك أعجب ما سمعت ولم أفهم كيف رأى مجدي ذلك.

في طفولتي أعجبت بذكاء أمي ومهارتها. وكان البيت كالساعة في نظامه ونظافته. إن قامت بطهو الطعام أجادت، وإن استقبلت ضيوفا فبالشكل اللائق، وإن تحدثت أحسنت، تكرر على مسامعنا: «لا أحب النص نص. في المدرسة كنت الأولى باستمرار. تلاميذ بالنسبة لي تعني تلاميذ مجتهدين. القبول بالمسئولية يعني القيام بها على أكمل وجه». وأصبح سعد «طبيبا نص نص». يملؤها ذلك مرارة تتغاضى عنها حينا، وحينا تتذكرها فتنفجر فيه كأنه عاد لتوه حاملا شهادة تخرجه بتقدير مقبول.

في المدرسة كنت أفخر بها عندما تأتي لزيارتي فتبدو أجمل الأمهات وأكثرهن أناقة وذكاء. أرى الإعجاب في عيون المدرسات، وزميلاتي أيضا كن يحسدنني لأنها تشرح لي الدروس وتساعدني في كتابة موضوعات الإنشاء وفي رسم الخرائط.

في سنوات المراهقة انقلب الحال فكنت أشعر بأني منكوبة بها وهي تضغط وتقتحم وتقمع، وبدا اللجام في يديها قارصا بما لا يطاق! تركتها تمسك بلجام وهمي. حفرت لنفسي سراديبي الأرضية التي لا تراها ولا تعرف بوجودها. أدرت شئوني بما يحلو لي بعيدا عنها: الكتاب الذي أقرؤه، السؤال الذي يشغلني، الصديقة

التي أسكن إليها، الشاب الذي أحبه.. كلها في السراديب أمور لا تعلم عنها شيئا. هكذا تحاشيت صدامات يومية تنهكها وتنهكني. وأحيانا رغم ذلك يقع الحادث المؤسف كأنه لا راد له.

قال سعد:

- ماما، أحب فادية وأريد التقدم لخطبتها.

- ومن هي هذه الفادية؟

كانت تعرفها وتعرف أنها صديقة سعد..

- ماما لقد رأيتها أكثر من مرة. إنها زميلتي في كلية الطب.

- وما عيب راندا؟

تلعثم سعد واحمر وجهه. تدخلت في الحديث:

- وما عيب فادية؟

- لا تناسبنا، راندا أحلى وأكثر أناقة، وأبوها جراح كبير كأبيك.

- ولكنه يحب فادية ولا يمكنك أن تملي عليه شعوره.

- كفي عن هذه الوقاحة ولا تتدخلي فيما لا شأن لك به. اسمع يا سعد! إن كنت تريد الزواج فأنا مستعدة أن أذهب معك إلى الدكتور سالم ونطلب راندا. أما موضوع فادية فمن الأفضل أن تصرف النظر عنه، وإن كنت مصرا فاذهب وحدك.

بعدها بأسابيع سألتْه:

- ماذا فعلت في موضوع فادية؟

- لم أفعل شيئا.

- هل تخليت عن الموضوع؟

- لماذا لا تجيب؟

- ماذا أقول؟

- قل لي ما حدث؟

- قلت لها إنكِ غير موافقة وإني مستعد للتقدم لخطبتها وحدي.

- ماذا قالت؟

- رفضت.

ابتسمت أمي ابتسامة عريضة وقالت:

- أنت ولد ساذج وبريء! هي وأهلها يريدونك طمعا في مال أبيك ومركزه.

- أرجوك يا أمي كفاك تجريحا!

وكانت هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها صوت سعد يعلو ويحتد. انسحب إلى حجرته. يومها اشتبكنا. علا صوتي وعلا صوتها.. ثم خاصمتني شهرا لم تبادلني فيه حرفا.

في البداية كنت مزهوة بها لا أرى أذكى ولا أجمل منها.. ثم ركضت نافرة وخائفة من عنفها المستبد. الآن لم أعد أركض ربما لأنني لم أعد خائفة. أقول لنفسي هي أمي وأنا ابنتها وهذا قدر لا

راد له. وهي لا تملك الآن أن تملي عليّ حياتي فلماذا لا أقبلها كما هي؟ ولكني لا أقبلها كما هي وأظل أتساءل لماذا تختلف أمي إلى هذ الحد عن أم سميرة مثلا؟ خالتي سيدة على عكس أمي لا يقلقها امتلاء جسمها. لها وجه قمحي مستدير يؤكده فرق في المنتصف تصفف على جانبيه شعرها الأجعد الذي بدأ الشيب يغزوه. تلبس أثوابا منزلية متواضعة تفصلها بنفسها على ماكينتها «السنجر» ذات اليد. باب شقتها لا يغلق أبدا وزوارها يأتون في كل وقت.. جيران وأقارب ومعارف يأتون لطلب النصح أو المواساة أو كوب من الزيت أو جنيهين حتى قبض المرتب أول الشهر أو للثرثرة وشرب كوب من الشاي. ربَّت خالتي سيدة أولادها وأطلقتهم في الدنيا أحرارا يفعلون ما يروق لهم، لا تطالبهم بشيء، بل وتقبل خياراتهم حتى وإن لم تكن تفضلها، ويظل صدرها واسعا ويداها ممدودتين وفي العينين نظرة تعاطف ومحاولة للفهم. فلماذا عندما جرؤت على إعلان أنني سوسن ولست خديجة أسقطت أمي ذراعيها وأدارت عينيها وأنكرتني؟

أتساءل عن مصدر الاختلاف بين المرأتين: هل هو طبع، أم تطبع مرده حياة علَّمت خالتي سيدة التضحية وإنكار الذات ولم تعلم أمي سوى التملك والاستبداد؟ هل خالتي سيدة أقل ذكاء من أمي وأضعف شخصية، أم أنها أرقى وأطيب وأحكم؟ وهل العصا واللجام اللذان تتمسك بهما أمي من معدات الطبقة التي تنتمي إليها؟ وإن صح هذا فلماذا يختلف أبي عنها إلى هذا الحد؟ إنه أكثر سلاسة منها يمكن التفاهم معه.. حتى عندما لا يتقبل ما أقوله أو أفعله يعلن اختلافه ولكنه لا يشتعل كالنار وينفجر فتتطاير الشظايا في وجه محدثه. إنه

سهل المعشر ومشغول ويحبها: «افعلي ما تريدينه يا خديجة»، «الأمر لك»، «ولم لا أليس هذ ما تفضلينه؟».. تتكرر العبارات في بيتنا كلازمة لحياتنا اليومية. سلمها كل شيء عن طيب خاطر لأنه منهمك في عمله الذي يستوعبه من الصباح إلى المساء. يعمل طوال الوقت وعندما يعود إلى البيت يفرط في تدليلنا كالأب العائد من السفر. هو يغدق ويدلل وهي تمسك باللجام وتفرقع بالسوط وتوجه بالمهماز لأنها تريد لنا السبق والفوز، هذا ما تقوله وتعتقده.

تفزعني وأحبها، ليس فقط لأنني نشأت على حبها ولكني أحبها لأني أحبها! وأعي تلك اللحظات التي تفاجئني نفسي وهي تسعى إليها تطلب القرب والقبول.. وأرتبك لأني لا أعود أفهم إن كانت سوسن الواقفة بعيدا تحمل ألف مأخذ على خديجة، واقفة بعيدا حقا بكامل روحها، أم أن شيئا ما ينسلت منها ويخطو متلصصا إلى المرأة الواقفة هناك يفتح ذراعيه ليطوقها وهو يهمس: «انظري إليّ يا أمي فأنا أحبك!».

فهل تطوقني أمي، أم أنني قطعت الرباط؟ أقيم وحدي ولا يملي خطوتي إلا ما أقتنع به وأعترف بأنه من الضرورة.. انقطع الرباط.. انقطع ولكنه يترك علامته كتلك العقدة الغائرة في منتصف البطن تميز جسد الإنسان منذ ولادته وإلى الأبد.

٣

اليوم رأيته. قال وهو يبتسم ويرفع يده بالتحية:

- كيف حالك يا سوسن؟

قلت دون أن أبتسم:

- لا بأس.

وابتعدت. فكيف يمكن للمرء أن يركض محموما في اتجاه إنسان ثم يعود يركض في الاتجاه المعاكس؟ وكيف يتحلل الشيء البهي كوردة فيثير في النفس التقزز والنفور؟

عندما دخلت إلى بيت أمين في تلك الليلة ورأيته جالسا ضمن الجالسين اندهشت إلى حد الارتباك، وملت على أمين أهمس في أذنه. «لم أكن أعرف أن الدكتور عبد الموجود صديقك». ابتسم أمين بزهو طفولي: «إنه صديقي جدا. لقد عاد من السفر الأسبوع الماضي». صافحته كما صافحت الآخرين وجلست باستحياء في حضرة الأستاذ. لم يكن يعرفني. ولكني كنت أعرفه. فقد درس لي عامين في الجامعة وكنت واحدة من مئات التلاميذ الذين كانوا يجلسون في المدرج مأخوذين بعلمه وبلاغته.

كان في الأربعين أو ربما تجاوزها بسنوات قليلة. قوي البنية وحلو القسمات. له عينان دعجاوان وحاجبان مقرونان وشارب أسود كث يلتقي بلحية تغطي ذقنه تماما وتكاد تخفي امتلاء شفتيه. كان آسرا في شكله وحديثه وكتاباته ومواقفه. وكنت أجلس في المدرج أتطلع إليه وأتابع ما يقول فيبدو لي ساطعا وبعيدا كنجوم السماء أو السينما. لكنه الآن كان يجلس على بعد شبرين مني يتحدث ويضحك بعادية وألفة مذهلة.

ثم قام ليعد القهوة. ووجدت نفسي أتبعه إلى المطبخ. وقف يصنع القهوة ووقفت أنظر إليه. حدث شيء. شيء ما حدث. فما الذي حدث؟ لا شيء.. رجل يصنع القهوة وامرأة تنظر إليه فيحدث ذلك الشيء الذي يسقط كل الأيام السابقة مصفرة وغريبة ويابسة كأن لم تدب فيها حياة قط، ويأتي بأيام تورق وتتفتح وتتوهج بهية وجديدة وخضراء. هل هكذا حب النساء، أم أنني التي أصابها الحب كصاعقة فصارت تركض في اتجاه من تحب كأنما الركض إليه هو الوجود وعلة الوجود؟ وهل كان حبا أو شبقا، أم كان الأستاذ الذي أسرني بمحاضراته وكتبه ومواقفه قد كسب الجولة مسبقا؟

صرنا نلتقي مرتين في الأسبوع. هكذا رأى من المناسب وهكذا كان. مرة نتناول غداءنا معا ونمضي ساعتين من الثانية حتى الرابعة، ومرة نلتقي مساء من السابعة حتى التاسعة. يتحدث وأسمع مأخوذة كطفلة أمام خشبة مسرح مفردة لعرض رجل واحد يروح ويجيء يصول ويجول، يستعرض قدرة مبهرة على تحويل مفردات التجربة إلى أفكار وأفكاره إلى حياة. مدهش كحاو يدخل الأرنبة في سترته ويخرجها من كمه مناديل ملونة. يقلب قبعته على المناديل الملونة ثم

يرفعها فتجد الأرنبة. وأنا طفلة بين يديه يبهرها عرض الرجل الواحد ويأسرها أن العرض مقام لأجلها. فكيف لامرأة تجاوزت الخامسة والعشرين أن تنبهر هكذا كطفلة؟ أي حمق وأي بلاهة! أم هو الحب يسلب الإنسان عقله؟ وكيف وانبهاري قائم على إحساس جارف بذكائه وعلمه وقدرته على التحليل السياسي والتاريخي، وعلى استخلاص جوهر المسألة وقانونها من ركام التفاصيل وصياغتها بوضوح وفصاحة؟ كان ذكيا وبليغا وكنت أحبه.

قالت لي سميرة إنها قلقة بسبب هذه العلاقة.

- لأنه متزوج؟

- لأنه متزوج وأيضا لأنه مقلق.

- ولكنه متزوج وغير متزوج! لا شيء يربطه بزوجته. إنهما يسكنان معا من أجل ابنتيهما. وأنا يا سميرة لا آخذ ما ليس لي ولا أتعدى على حق أحد!

اندفعت كلماتي بلا قصد حادة وغاضبة. آلمني كلامها واستفز طاقتي للدفاع عن النفس. ولكنها عنيدة. كررت بهدوء كأنها لم تسمعني.

- لا أطمئن له.. به خلل لا أدري ما هو.. خلل ليس في التفاصيل بل في الجوهر. سوسن أنا متأكدة!

قالتها بعناد البغال وحسم الأنبياء! تركتها حانقة أقول لنفسي إن صديقتي غبية.. فمن كان الغبي فينا؟

قلت لعبد الموجود: «حدثني عن زوجتك». قال: «ألم أفعل من

قبل؟». كان قد حكى لي عن ملابسات زواجه بها أثناء دراسته في الخارج. «كنت غريبا ووحيدا.. وكانت هي صغيرة ولطيفة وابنة أستاذي الذي فتح لي بيته كأنني واحد من الأسرة.. كانت قصة عاطفية عابرة ولكنها للأسف انتهت بالزواج وطفلتين، فلم تعد قصة عابرة رغم أن العاطفة استنفدت نفسها وانتهت».. كان ذلك ما قاله لي في مرة سابقة.. هكذا بشكل مقتضب. ولكني في هذا اليوم كنت أريد أن أسمع منه بإسهاب. قال:

- لماذا تريدين أن أحدثك عنها؟

- أريد أن تحدثني عنها، عن علاقتك بها.

- ليس لدي ما أقوله. إنها امرأة طيبة محدودة الإمكانات، وليس بيننا سوى البنتين وحكاية قديمة.

- فقط؟

- فقط!

نظر إلى ساعته وقال إن موعد ذهابه قد حان. كان دقيقا كساعة، منظما كحاسب آلي.. يبدأ يومه في الخامسة إلا ثلثا صباحا بتمرينات رياضية لعشر دقائق ثم حمام بارد وفنجان قهوة بالحليب ويجلس إلى مكتبه من الخامسة إلى الثامنة والنصف بعدها يتناول إفطاره وينزل إلى الجامعة.

ولم ألتق بزوجة عبد الموجود إلا عندما دعاني لقضاء ليلة رأس السنة في بيته.

وفي الليلة المحددة ذهبت. كان بيته في المعادي. شقة بالطابق

الأخير في عمارة حديثة. أدهشني ثراء البيت والعناية الكبيرة المتبدية في تأثيثه وترتيبه. كانت أرضية الصالة مغطاة ببساط أبيض سميك الوبر يمتد من الحائط إلى الحائط. كذلك كانت وسائد الأرائك والمقاعد الوثيرة من قماش عاجي اللون تتخلله خيوط ذات لمعة فضية. أما الموائد الصغيرة فكانت مسطحاتها من زجاج دخاني اللون وضعت عليه منافض للسجائر مصنوعة من الفضة أو الكريستال. لمحت في أحد الأركان زهرية ضخمة من الصيني الثمين عليها رسم تنين أسطوري وتحمل مجموعة من ريش الطاووس. سألني عبد الموجود:

- ما رأيك؟

- فخم، ربما أكثر مما يجب!

قطب..

- وهل يجب أن يعيش التقدميون في أكواخ؟

ثم ضحك..

- تعالي أعرفك على جين.

نادى عليها فجاءت. أدهشني جمالها. كانت امرأة قوية الحضور. بدا ذلك واضحا حتى قبل أن نتبادل حرفا واحدا. طويلة ممشوقة القوام أميل للنحافة، لها وجه جميل القسمات يعلوه بعض النمش، وشعر خيلي أقرب إلى لون الحناء. وكانت تلبس ثوبا جميلا من القطن المطبوع. ابتسمت وهي تسلم عليّ فبدت أكثر عذوبة وأقل قوة. قالت مرحبة بود إن عبد الموجود حدثها عني فاندهشت للمرة الثالثة.

ما الذي أشعرني بأنني وحيدة؟ جلست بين المدعوين أبحث عن كلام أقوله فلا أجد. إن توجه إليّ أحد بالحديث أجبت باقتضاب وعدت للصمت. ما الذي أتى بي إلى هنا؟ لازمني السؤال طوال السهرة كما لازمني شعور بالدهشة والحرج. كان عبد الموجود مشغولا عني بضيوفه الآخرين. ربما استفزته عبارتي عن فخامة البيت. وربما كان يتعمد إهمالي حتى لا يفتضح أمرنا.. ولكنه عندما انتصف الليل وأطفئت الأنوار وتعالت الهمسات والضحكات فوجئت به يحيطني بذراعيه ويقبلني، فانتفضت خائفة! ثم أضيئت الأنوار. درت بعيني أبحث عن جين فلم أجدها، ولما سألته عنها قال: «لا بد أنها في المطبخ تستعد لتقديم العشاء».

غادرت بيت عبد الموجود يثقلني شعور بالغثيان وآلام في الرأس. وعندما وصلت إلى البيت دخلت إلى دورة المياه وانحنيت على المرحاض وتقيأت. تقيأت كثيرا وطويلا حتى إنني جلست على الأرض لصق المرحاض لا أقوى على الحركة.

في اليوم التالي اتصلت به.

- أريد أن أراك.

- موعدنا بعد غد.

- ولكني أريد رؤيتك الآن.

- لا وقت لدي ولكن لو كان الأمر ضروريا جدا آتي، هل تريدينني لأمر ضروري جدا؟

- نعم.

جاء فقلت:

-عبد الموجود أعتقد أن الأمور لا يمكن أن تستمر على ما هي عليه.

- لا أفهم.

- أقصد استمرار علاقتنا.. وجود زوجتك.

- لماذا؟

- لا أفهم ما الذي يقلقك. قلت لك وكنت صادقا إنني لم أعد مرتبطا بها. عاطفيا أنا حر ومن الطبيعي أن أنشئ علاقات تفي باحتياجاتي.

- ولكن زوجتك حاضرة في حياتك. تعيش معك وتستقبل ضيوفك وتعد لك طعامك و...

- لا تكوني ساذجة!

- لا أفهم.

- هناك اعتبارات عملية. نعم جين زوجتي، شريكتي في البيت وأم أطفالي.. هذا موضوع. أما أن أحب وأصادق فهذا موضوع آخر، من حقي.

- وأنا؟

- أنت في وضع أفضل مني لأنك حرة تماما حتى من الارتباط الشكلي.

كدت أقول له إنني أريد الارتباط به بالشكل الطبيعي والمتعارف عليه بين البشر من آلاف السنين.. أن أتزوجه وأقيم معه وأنجب منه أطفالا ولكني أحجمت.

- لسنا صغارا يا سوسن. وهناك أولويات. والأولوية المطلقة عندي هي قدرتي على العمل، على الكتابة والمشاركة الفعلية. وهذا أمر لا يخصني وحدي بل يتعلق بدور علمي وثقافي وسياسي نذرت نفسي له. تصوري لو أنني كلما أحببت امرأة ركضت خلفها لأبدأ إطارا جديدا لحياتي، فلن أتمكن من كتابة أي شيء ولا المساهمة في أي فعل.. سأنتهي. أنا إذن بحاجة إلى الاستقرار لأكون منتجا. تزوجت جين منذ خمس عشرة سنة، لي منها بنتان وبيننا بيت وحياة مشتركة. أحتاج هذا ولكني أحبك أنت ولا أرى تنافرا بين الأمرين!

- ولكن هذا الوضع مهلك لي.. وغير أخلاقي.

ضحك..

- أنت متخلفة!

- أنا؟

استجمعت شجاعتي وقلتها:

- ولكني أريدك معي. أريد أن تربطنا حياة مشتركة.

- هذه أنانية.

- أنانية؟

ربما شعر بأنه تسرع في الكلمة. ربت على كتفي وهو يبتسم:

- تعرفين أنني أحبك ولكنني أفكر بشكل عملي وليس بمنطق «عش العصفورة يكفينا»! لا أحد يعيش على الحب يا سوسن سوى الأبطال الأغبياء في الأفلام العاطفية الرخيصة!

- ونحن طبعا لسنا أغبياء وليست حياتنا فيلما عاطفيا رخيصا، أليس كذلك يا دكتور؟

وذهبت وعلى فمي ابتسامة ساخرة ومُرة باغتته كما باغتتني أنا نفسي فلم أُعد لهذه النهاية ولم تخطر لي ببال. تركته ومشيت في طريقي إلى البيت بهدوء واتزان كأنني لم أكن أركض تجاه رجل أحبه فاصطدمت بجدار من زجاج شج رأسي وجرحني وترك كدماته الزرقاء تعلم في جسدي.

ما الذي جعلني أقع في حب عبد الموجود إسماعيل؟ شغلني السؤال لشهور.. وعندما طرحته على سميرة قالت: «لكل إنسان قانونه النفسي». فقلت: «وهل قانوني هو الوقوع في حب الإنسان الخطأ؟».

هادي.. الحب الأول.. ذلك الجنون الذي يعتري الطائر في السماء فيضرب بجناحيه كأنما أصابه مس من كهرباء أو حمى. أحبه. أحب كل شيء فيه: شعره الأجعد، عينيه الصغيرتين، نظارته الطبية، فمه الكبير، نحول جسده، صغر جسمه، ابتسامته الخبيثة، بنطلونه «الجينز»، وقميصه القطني.

همست لي زميلتي نجاح وهي تقف بجواري في طابور الصباح بالمدرسة:

- ذكريني في الفسحة.. سأقول لك سرا.

- ولماذا لا تقولينه الآن؟

- لا وقت. ثم إنه سر. لا بد أن نقف بعيدا حتى لا يسمعنا أحد.
ثم وهي تهمس في أذني:

- إنه سر خاص بمظاهرات الطلبة.

على مدى الحصص الثلاث لم أفعل سوى انتظار انقضائها. أنظر في الساعة ثم أعود وأنظر في الساعة. هل شاهدت نجاح المظاهرات؟ ولكن كيف تشاهدها وقد كانت بالقرب من الجامعة في الجيزة وهي تسكن في عابدين؟ لا بد أن أحدا حكى لها. ترى من الذي حكى لها؟ أنظر في الساعة وأحدق في وجه المدرسة وهي تشرح الدرس وأفكر في السر. وأخيرا دق الجرس.

انتحينا جانبا تحت شجرة التوت الكبيرة. قالت نجاح وعلى وجهها تقطيبة من ينطق بأمر خطير:

- إنه سر. أقسمي ألا تفشيه لأحد.

- أقسم.

- لا، قولي والله العظيم ثلاثا لن أقول.

- والله العظيم ثلاثا لن أقول.

قالت بصوت هامس رغم أننا كنا وحدنا في ركن قصي من فناء المدرسة:

- أخي هادي اشترك في المظاهرات بالأمس وعاد إلى البيت

ورأسه مجروح ومربوط بالشاش الأبيض.. ولما سأله أبي قال له إنه كان يسمع معلقة امرئ القيس في فناء الجامعة ولم ينتبه فاصطدم بشجرة وجرح وذهب إلى عيادة الكلية فربطوا له رأسه.

- وهل أخوك في الجامعة؟

- في سنة ثالثة في كلية الآداب.

- هل معك صورته؟

- لا

- غدا هاتي الصورة، لا تنسي!

أتت بالصورة. تطلعت إليها فرأيته جميلا. وعندما ذهبت لزيارتهم وجدته أجمل. كان يتحدث بطلاقة وثقة وكنت أفهم بعض ما يقول ولا أفهم البعض الآخر فيزداد انبهاري.

خبأت صورته في كتاب التاريخ، أفتحه وأتأملها: اسمه جميل وشكله جميل وكلامه جميل ولكن الأجمل أنه عبقري.. أقول ذلك لزينب فتضحك: «عبقري؟». فأؤكد بثقة: «نعم، عبقري!».

كان في التاسعة عشرة وكنت أصغره بأربعة أعوام. يقول. «أحبك يا سوسن». وأقول: «أحبك يا هادي». نكتبها في الرسائل، نهمس بها في التليفون، نعيشها في التقاء عيوننا وتلامس أيدينا في اللقاءات الخاطفة.

وكان هادي يتقن التحليق في الأحلام، يطير كأنه طائر، طائر مدهش يلبس نظارات طبية ويدمن قراءة الكتب وترديد الأشعار. ويغني لي أغنيتي المفضلة:

في كل حي ولد عترة وصبية حنان

وكلنا جيرة وعشرة وأهل وخلان

أميرة عاقلة وفى الحجلة، العقل يطير

كانت صغيرة بضفيرة كان هو صغير

ساعة ما تضحك مع أخوها تلاقيه بيغِير

ولَمَّا ترفع قُلتها تلاقيه عطشان

زمانه ماشي بخطوة يضم

زمانها كبرت وبقت أم

زمان جواب جاي لها بيجري على العنوان

في كل حي ولد عترة وصبية حنان

وكلنا جيرة وعشرة وأهل وخلان

الفجر بيلاقي المغرب وبييجي ويروح

والليل يرُد على الشارع شباك مفتوح

هنا الرصيف وهنا السلم وهناك يا سطوح

متعلقة كمام النونو فى ديل الفستان

زمانه ماشي بخطوة يضم

زمانها كبرت وبقت أم

زمان ضناهم فى المدرسة كنز الأوطان

التحقت بالجامعة في نفس السنة التي عين فيها هادي معيدا بها بعد تخرجه وبدا لنا في تلك السنة الأولى أن الجنة فتحت لنا أبوابها فدخلنا نتسكع في أرجائها بخطوات كسولة نتحدث طويلا عن أنفسنا وعن الآخرين، في السياسة وفي التاريخ، نخوض فيما مضى وما سوف يأتي ونطرح المخاوف والأحلام. نتحدث حتى يفيض الحديث عن الزمن المباح بين محاضرتين أو بين الوصول في الصباح والمغادرة في المساء.. نودع بعضنا بعضا على دقات ساعة الجامعة ونخرج من البوابة الحديدية «غدا نلتقي» ونلتقي لنجد جنتنا على حالها مشرعة الأبواب.

فماذا حدث؟ كيف يتعكر ماء النبع؟ ومن أين تأتي نباتات الوحشة؟ وبأي قانون تتكاثر وتعيق المجرى وتسد الطريق؟ قال. «أنتِ المسئولة!». كنت أحبه. أكابر في الصباح وفي الليل أبكي. فهل كان هادي يريدني وردة بين يديه خالصة له وحده ترقبها العيون عن بعد فتحسده لأنها له، أم أنني كنت نافرة وعنيدة كما قال؟ هل كانت يده التي تحيط بي يد العاشق التي تحمي وتضم أم كانت يدا تطوق وتمتلك؟ أم كانت اليد واحدة في الحالتين؟ هل كنا طفلين عنيدين بددا قيمة بسلوكهما الأحمق؟ وهل تدهور هادي لأن علاقتنا تحطمت، أم أن علاقتنا لم تدم لأن شيئا بداخلي كأنه الحدس نفر وابتعد عندما لمح خللا كامنا؟ كنت أحبه. أتزين في المرآة لأجله وأقبل عليه بلهفة العاشقة. وعندما أراه نختلف. يعلو صوتي ويعلو صوته. نتشاجر ثم نتخاصم. وفي المساء أفتح كتبي لكي أستعيد دروسي فلا أستعيد إلا خلافاتنا، وتضطرب الحروف أمام عيني الدامعتين.

ذات صباح ذهبت إليه وقلت: «اتركني وشأني. سأرسب في

الامتحانات، هل يمكن أن تتركني وشأني؟». تركني. لم نلتق طوال شهرين ثم تصالحنا. وبدا أن الأوقات صفت وكذلك المياه التي عادت إلى مجاريها، ولم يكن هناك ما نتشاجر بشأنه. توقف نشاط الأسرة بسبب الامتحانات ثم العطلة الصيفية واختفى كل الأولاد الذين كان هادي يغار من وجودي معهم.

بدأ العام الدراسي وبدأت الخلافات هذه المرة أعنف وأحد. عرفت بها نجاح فتوسطت بيننا في محاولة لمصالحتنا. «كل الطلاب والطالبات عيونهم عليكما. لقد حسدوكما!». نهرها هادي. أما أنا فضحكت. حدجني بنظرة صارمة. قال مواصلا الكلام:

- سوسن أنا لا أمزح. لا أريدك بهذا الشكل.

- وأنا أيضا لا أمزح. هذا شكلي وإن لم يعجبك انتهينا.

ولكننا لم ننته. عام كامل من الشد والجذب، واللهفة والتصادم، أركض نحوه ويركض نحوي، وعندما نلتقي يعلو صوتنا ونتشاجر، أتركه غاضبة، وفي المساء ينحسر الغضب ليحل محله حزن واهن.

أحكي لأمين زميلي في الكلية وفي الأسرة: «تغير هادي يا أمين، تغير. أحاول أن أفهم غيرته ولكني لا أفهم هذا الحرص الذي استجد عليه فجعله يخشى أي كلمة أو لفتة تهدد مركزه كمعيد. ولو افترضنا أن ذلك من حقه فكيف يحق له أن يطالبني بوقف أي نشاط بدعوى أن ذلك أيضا ينعكس على وضعه؟ وماذا يفعل بي إذن عندما نتزوج؟

تجمعني بأمين صداقة وألفة تجعل الحديث يجري بيننا في هدوء ويسر. أفضي إليه بمشاكلي مع هادي ومع أمي. أحدثه عن أبي وسعد. وهو أيضا يحكي لي عن أهله في القرية وأبيه الذي أراد له أن يدرس

في الجامعة ليصبح كالأستاذ عبد الصبور مدرس القرية التي يحلف أهلها بحياته.

بعد انتهاء المحاضرات أجلس مع أمين لنناقش نشاط الأسرة الجامعية التي ننتمي إليها ونعد المادة التي سننشرها في جريدة الحائط. وعندما ننتهي لا ننصرف كل إلى حاله بل نمشي سويا في الطريق المؤدي إلى كوبري الجامعة نعبره ونواصل حتى نصل شارع قصر العيني فيتجه هو إلى منطقة مجرى العيون حيث يسكن وأركب أنا إلى ميدان مصطفى كامل.

في ذلك اليوم قال لي أمين إنه يريد التحدث معي في موضوع مهم، فصحبته إلى مقهى مطل على النيل بالقرب من الجامعة.. قال:

- تعرفين سميرة أليس كذلك؟

كنت أعرفها عن بعد، فهي زميلة لنا تصغرنا بعامين دراسيين وتشاركنا أحيانا بعض نشاطاتنا في الأسرة.. كانت فتاة سمراء دقيقة الملامح تتميز بتعليقاتها الساخرة وبديهتها الحاضرة وشيء من حدة عند الاختلاف. قلت:

- أعرفها.

- أريد التقدم لخطبتها.

- وهل فاتحتها في الأمر؟

- لم أفاتحها.. لم تواتني الجرأة. هل يمكن أن تسأليها أنتِ عن رأيها؟

- وهل تريد أن تفاتحها في موضوع حبك أم الزواج؟

- وما الفرق؟

- أليس من الأفضل تأجيل مسألة الزواج بعض الشيء؟

- ولكني أحبها. أنا واثق من شعوري ورغبتي في الارتباط بها. فإذا كانت تبادلني الشعور لا أرى لماذا لا أسلك بالأصول وأكتب لوالدي فيأتي من البلد ويطلبها من أهلها.

قلت وأنا أضحك:

- تناقش في السياسة كأنك مولود في هايد بارك وتبقى رغم ذلك ريفيا طيبا! لم لا تتشجع وتأتي معي إلى الكلية وتقول لها: «سميرة أنا أحبك هل تحبينني؟».

لحظتها سمعته ينادي. التفت باتجاه الصوت. كان هادي يقف على بضعة أمتار. قلت:

- أهلا يا هادي، تعال.

قال من دون أن يتحرك من مكانه:

- لو سمحت أريدك دقيقة!

قمت إليه متوجسة. كان وجهه متكدرا.

- ماذا تفعلين مع هذ الرجل؟

- لماذا تقول «هذا الرجل»؟ إنه أمين وأنت تعرفه.

- أجيبي عن سؤالي. ماذا تفعلين مع هذا الرجل؟

- نتحدث!

ابتسم متهكما:

- في أمور الدراسة؟

- لا، في مسألة شخصية.

- سوسن أنتِ سافلة!

قالها في هدوء صارم كأنه قاض ينطق حكما..

- أنت السافل!

أدرت ظهري وعدت للجلوس مع أمين. بعد أسابيع عندما علم هادي بأن أمين خطب سميرة جاء واعتذر. قال إنه أخطأ. قال إنه بحاجة لي.. ولكني كنت قد أدرت ظهري ومضيت مبتعدة.

٤

ضغطت على الجرس وانتظرت حتى فتحت لي امرأة سمراء نحيلة تلبس ثوبا منزليا من القطن المنقوش.

- جئت لمقابلة السيدة زينب عبد الحميد.

دعتني السيدة للدخول.

- اسمي سوسن كمال. هي لا تعرفني ولكن...

قاطعتني المرأة:

- هل أبوك مريض؟

إذن فالمرأة أمها أم أنها المربية والأمر مشاع؟ قلت بحدة:

- هل بإمكاني رؤية مدام زينب؟

- أنا زينب يا سوسن!

حدقت فيها. كانت المرأة التي هتفت بحميمية «أنا زينب يا سوسن» قد تجاوزت الستين، وكان هذا آخر ما توقعته!

عندما أخبرني أبي بالأمس وهو في غرفة العناية المركزة بالمستشفى

أنه متزوج من امرأة أخرى، وأنه يريد مني أن أذهب إليها قبلت رأسه ووعدته أن أفعل.. ولكن ما أن غادرت باب المستشفى حتى انفلتت بصدري دوامة عاتية من الانفعال.. ولم يكن أبي هو مركزها بل أمي شاحبة الوجه تروح وتغدو في الممر المجاور لحجرته تذرف الدمع وهي تعدد مزايا الزوج طوال خمسة وثلاثين عاما. كنت غاضبة ومتمردة أكرر لنفسي أن الرجال سفهاء وأنانيون.

- يريد أن يراني. أليس كذلك؟

- إنه يريد أن يراك.

بدأت تبكي وبدا لي الأمر كابوسا. أردت واجتهدت في إيجاد شيء أقوله ولم أجد، فقمت لأنصرف وقلت وأنا أصافحها:

- سآتي غدا في الخامسة مساء لآخذك إليه.

لم أنتظر المصعد. هرولت على الدرج. ما الذي حدث؟ لم يطلب مني أبي أن آتي بها إليه، فلماذا قلت لها ذلك؟ وما الذي تعنيه لي حتى أشفق عليها؟

رقاد أبي مريضا هكذا بلا حول ولا قوة يوجعني. أرغب في تدليله والحنو عليه. ومع ذلك فزواجه من امرأة ثانية ثمرة مرة تترك علقمها في حلقي سواء بلعتها أو بصقتها.

مات أبي. أمي تنتحب وتلطم وتشق ثوبها وتنادي سعدا وهو بجوارها. تبدو واهنة ومسكينة كأنها ليست خديجة هانم، الملكة، التي يستنفر دبيب خطواتها في ممرات المستشفى كل العاملين به. أراقبها وأبكي في صمت، وأعي المرأة الأخرى فأبكي أكثر.

انتقلت للإقامة مع أمي حتى انقضاء أربعين الحداد. ألمها الذي بدا فائرا في الأيام الأولى سكن وتحول إلى حزن صاف. تتركز في قاعة ركدة ثقيلة وداكنة كركدة القهوة المرة التي تشربها مغلية مرات لا تحصى أثناء الليل والنهار. لم تعد تنتحب أو تصرخ. أصبحت شاحبة وساكنة.

بعد الأربعين بيوم واحد تشاجرت أمي مع سعد. قال لها سعد إنه سيعود للإقامة في الإسكندرية لأن السفر يوميا مجهد. فقالت له إنها تريده أن يترك عمله هناك لينتقل نهائيا إلى القاهرة.

- لتكون بجوارنا، وأيضا لأن المستشفى بحاجة إليك. سعد لقد صرت طبيبا لتدير هذا المستشفى.

- ماما أنا لا أريد ولا أقدر على إدارة المستشفى!

- كلام فارغ.. أنت الآن رجل مسئول وعليك أن تعود إلى القاهرة لتتحمل مسئولياتك.

- ما رأيك يا ماما في بيع المستشفى؟

اندفعت أمي تصرخ فيه كأنه لم يتجاوز السابعة من عمره:

- اخرس! أبوك لم يتعب في بناء هذا المستشفى لكي تبيعه بعد ساعات من وفاته. اخرس يا وقح!

تدخلت زينب وتدخل مجدي وتدخلت راندا. قالوا إن سعدا لم يقصد.. وانتهى الأمر بسعد يعتذر ويقبل رأس أمي.. فانسالت الدموع من عينيها. أما هو فكان وجهه جيريا كالحجر.

غادرت المنزل لا أقصد مكانا بالتحديد. أشعر بصداع في رأسي وبوادر غثيان. وكانت أصوات أمي وسعد والآخرين ما زالت تطن في رأسي. ذهبت لزيارة سميرة فلم أجدها.. فواصلت المشي في الشوارع ولم أنتبه إلا وأنا أقف أمام بابها أدق الجرس. ما أن فتحت الباب حتى أحاطتني بذراعيها وبدأت تنتحب وتكرر:

- اخص عليكِ يا سوسن! واحد وأربعون يوما وأنا أنتظرك! كل يوم وكل ساعة أقول تأتي ولا تأتين.

عقدت الدهشة لساني وبدت لي المرأة غريبة الأطوار. كانت الألفة التي تحدثني بها وما تتعشمه من سلوكي يثير الاستغراب حقا. (تذكرت الطريقة التي قالت بها: «أنا زينب يا سوسن!» المرة السابقة كأن علاقة حميمة تربطنا تجعلها ما أن تنطق بهذه الكلمات حتى ألقي بنفسي على صدرها أقبلها وأحتضنها!). هي فعلا غريبة الأطوار، وها هي ذي قد جلست ملاصقة لي وأمسكت بكلتا يدي بين يديها. كانت تسألني عن زينب وسعد وأمي، فأجبتها باقتضاب من دون أن أفهم شيئا. طلبت أن أذهب إلى الحمام. قالت أنها ستصنع لي كوبا من الشاي «أم تفضلين القهوة؟» «قهوة». في الحمام وضعت رأسي تحت الصنبور وتركت الماء البارد ينسكب على شعري. سألتني وهي تقدم لي القهوة:

- هل بللت شعرك يا سوسن؟

- عندي صداع.

- هل آتي لك بمسكن؟

- لا داعي، سأشرب القهوة.

خيم الصمت وبدا أن المرأة غارقة في عالمها. وددت لو كانت تجلس في المقعد المقابل. تجلس فأتمكن من رؤيتها من دون أن أختلس النظر إليها. كانت امرأة نحيفة. بشرتها في لون القمح عندما تلوحه الشمس تماما فيصبح كالبن الفاتح. وكان وجهها رغم تقدمها في السن يكاد يخلو من التجاعيد. كانت المرأة قد احتفظت بجمالها الخاص يؤكده شعر أسود أملس خطه شيب قليل، جدلته في ضفيرتين طويلتين.

- وما العمل الآن يا سوسن؟

تطلعت إليّ بشيء كالرجاء ولم أجد ما أقوله. خيم الصمت ثانية ثم قالت:

- أنتِ لا تعرفين. لم يكن زوجي فقط. لعبنا معا ونحن أطفال. ولما كبرنا بدا كأن الدنيا لا تأخذ كلّا منا في طريق إلا لكي تعيدنا فنلتقي.

قلت إني ذاهبة. لم تستبقني.

لم أنم طول الليل. تارة أشعر بأن سلوكي معها كان قاسيا. وتارة أخرى أشعر بأنني محقة ويملؤني الغضب وأنا أنتصر لنفسي «هذه المرأة في النهاية تتحدث عن علاقتها بأبي. علاقة كانت أمي الطرف المخدوع فيها عمرها كله». أقول إنني قسوت ثم أقول إنني لا أشاهد فيلما سينمائيا على شاشة تعود قماشية وبيضاء ما أن تتوقف آلة العرض وتضاء الأنوار. لست حجرا! أشعر بأن الواجب والإنسانية

كانا يقتضيان أن أنصت لهذه المرأة الوحيدة.. ثم أضيق بالأمر كله وألعن اللحظة اتي أطلعني فيها أبي على سره، وأقرر أن ما فعلته هو العقل بعينه. مات أبي ودفن. فليدفن سره معه. ولن أذهب إلى هذه المرأة بعد ذلك. لا أحد يسعى إلى الألم بقدميه. ولتذهب إلى الجحيم أو الجنة. لا شأن لي بها.

ورغم ذلك الرأي الذي بدا أنني استكنت إليه في نهاية ليلة مؤرقة فقد ذهبت إليها ما أن انتهيت من عملي في اليوم التالي. قلت لها بصراحة ربما فاجأتها إنني جئت لأعرف منها حكايتها مع أبي «لكي أفهم. وربما لو فهمت أتصرف بشكل أكثر اتزانا».

بقيت في بيتها من الرابعة بعد الظهر حتى الساعات الأولى من الفجر.. وعندما أردت الانصراف لم تسمح لي: «لأن الوقت متأخر ولا يصح أن تنزلي بمفردك في هذه الساعة». ثم بشيء من تلعثم: «لستِ ضيفة في هذا البيت... وكادت أن تكمل ثم توقفت.

يومها حكت لي زينب عبد الحميد قصتها مع أبي كأنها فيلم سينمائي طويل شاهدته في جلسة ممتدة لم تقطعه سوى فواصل قصيرة شربنا فيها الشاي والقهوة.

«كان جدك صفوت يسكن في إحدى الشقق بعمارة سكنية من أربعة طوابق بالإسكندرية. وكان أبي رحمه الله يعمل بوابا بنفس العمارة. هاجر من أسوان في شبابه بحثا عن لقمة العيش ثم تزوج بأمي وهي من الإسكندرية وخلف منها أربعة كنت أصغرهم. كنا جميعا نسكن حجرة واحدة بالطابق الأرضي للعمارة. وكان أبي رغم فقرنا شديد الكرم يحسن وفادة الضيوف من أقارب ومعارف

وبلديات وأغراب، يعاملهم معاملة الأهل لأنهم أقارب للمعارف والبلديات. كان أميا يؤمن بالله والتعليم. يكرر علينا: «لو تعلمتم يا أولاد تنفتح أمامكم كل الأبواب المغلقة». وأذكر أنه عندما نجح أخي محمد من دون تفوق ضربه أبي ضربا مبرحا وهو يصيح فيه هائجا: «يا حمار يا بن الكلب أضعت على نفسك المجانية فكيف لي أن أعلمك؟».

كانت أمي تقضي النهار في غسل ملابسنا وإعداد أكلنا الذي يشاركنا فيه أي ضيوف مفاجئين، وتمسح سلم العمارة، في حين يقضي أبي اليوم في شراء لوازم السكان ليجمع قروشا إضافية تفي بلوازم تربيتنا وتعليمنا و«اللقمة الهنية اللي تكفي مية».

كان كمال طفلا وحيدا وكنا أربعة وكان يحب أن يلعب معنا في بئر السلم أو أمام البيت. نتفق ونختلف ونتشاجر ونتصالح كعادة الأطفال.. وعندما يعود أبوه من عمله ويقول له «اطلع يا كمال لتأكل» يقول: «سآكل عند عم عبد الحميد»! فأسمع أبوه يقول له: «أنت وش فقر»! ولكنه يتركه يأكل معنا.

كنا نتناقر أنا وكمال. هو يقول إن الأولاد أحسن من البنات لأنهم أقوى وأذكى. «أنا مثلا أشطر منكِ، فأنا أقرأ الفرنسية وأكتبها وأنتِ حمارة لا تقرأين إلا في كتاب المطالعة الرشيدة»! فأقول له: «أنت أكبر مني بسنتين ومع ذلك أنا أستطيع عبور شارع الترمواي وشراء صندوق من زجاجات المياه الغازية أحمله على رأسي وأعود به وأصعد إلى الطابق الرابع عندما تطلب مني أمك ذلك، وأنت لا تستطيع!». كان كمال يذهب إلى «كلية سان مارك». تأتي سيارة

المدرسة لأخذه كل صباح فينزل بالزي الخاص بالطلاب وفي يده حقيبة جلدية ويركب. أما أنا وأخوتي فكنا نذهب إلى المدرسة الابتدائية القريبة سيرا على الأقدام بملابسنا العادية نحمل كتبنا في أكياس من «الدمور» تصنعها لنا أمي.

ثم تركنا البيت. صمتت المرأة. ترك أبي عمله بسببي. سكتت مرة أخرى. بسببي أنا وكمال. لم يحدث شيء ولكن أبي كان صارما وخائفا أيضا. وربما كان على حق. كانت والدة كمال قد نادت عليّ وطلبت مني شراء أغراض من البقال. اشتريت وصعدت لأعطيها ما طلبت ولكنها لم تكن في البيت. قال كمال إنها خرجت ودعاني للدخول. كانت أمه تكره أن يدعونا إلى البيت. وربما كان ذلك هو السبب الذي جعله يدعوني وجعلني أقبل. دخلت معه إلى غرفته وأجلسني على السرير وأتى لي بألعابه ورحنا نلعب ونضحك. جاءت أم كمال وفتحت الباب ورأتنا نجلس متجاورين على السرير فوبخته وطردتني. ولا أدري ما الذي قالته لأبي ولكنه في المساء انهال عليّ ضربا حتى أسال دمي. وقال: «لو سمعت أنك دخلت بيتهم سأقتلك!». وفي اليوم التالي أعلن أنه سيبحث عن عمل آخر وأننا سننتقل. وانتقلنا.

كنت في الخامسة عشرة عندما عرض عليّ أبوك الزواج للمرة الأولى. ضحكت وقلت: «كيف؟». قال: «أخطبك وعندما أعود طبيبا من إنجلترا نتزوج». كنا صغارا ولكني كنت أحبه. دخلت مدرسة الحكيمات من أجله. سافر ليدرس الطب ويصبح طبيبا. وأردت أن أكون طبيبة مثله ولم تمكني الظروف فدخلت مدرسة الحكيمات.

غاب أبوك تسع سنوات زار فيها مصر أربع مرات. كان شابا وسيما لم أر أجمل منه. ولكنه عندما عاد بعد سنتين من سفره كان يبدو كالنجوم الذين نراهم في الأفلام الأجنبية: الشارب الأشقر الصغير، الشعر الناعم المفروق من الجنب بعناية، والملابس الأنيقة.. قال لي إنه يحبني ولا يريد إلا أنا، ولكني كنت متوجسة يحدثني قلبي أنه لم يعد لي.. وعندما سافر بعد زيارته الثالثة بكيت بحرقة من يودع إلى الأبد. وصدق حسي. أصبحت رسائله كالأعياد لا تأتي إلا مرة في السنة. وعندما مرض أبي قال لي وهو على فراش الموت: «يا زينب جاءك أكثر من عريس ورفضت. إن كنت تنتظرين كمال فأنت واهمة. البهوات أنذال لا يحكمهم شرف ولا تربطهم كلمة». فقلت له: «أنا لا أنتظر أحدا وكمال تربى معنا وهو كأخي لا فرق». وكنت أكذب.

عندما عاد أبوك من الخارج نهائيا لم يخبرني لا قبلها لأنتظره في الميناء كما في المرات السابقة، ولا بعدها فألتقي به. ثم عرفت أنه خطب وتزوج. وكنت أعمل حكيمة في مستشفى بالرمل. في الأول كذبت الخبر ثم مرضت.. كانت أياما صعبة استمرت ثلاث سنوات.. ثم تزوجنا وكان ذلك منذ ثلاث وعشرين سنة. احتفظت بعملي وبقيت في الإسكندرية لعدة أعوام ثم أصر أبوك على تركي العمل وانتقالي إلى القاهرة. استأجر لي هذه الشقة وانتقلت.. والآن ذهب كمال ولم يعد هناك معنى للبقاء».

دخلت لأنام وأنا في حالة من الإعياء الشديد. وقررت أنني سوف أقضي ليلة ثانية من الأرق بعد كل ما سمعت وأيضا لعدم تعودي على المكان. ولكن ما أن وضعت رأسي على الوسادة حتى رحت في سبات عميق.

طوال أسبوعين كنت أذهب إلى عملي ثم أعود إلى أمي أقضي معها بعض الوقت ثم أعود إلى بيتي. وفي الطريق أتوقف عند بقال مجاور أتصل تلفونيا بزينب عبد الحميد «هل أنتِ بخير؟ هل تريدين شيئا؟ إذن مع السلامة!»، أفعل ذلك يوميا وبشكل آلي وأعرف أن الساعات منذ مغادرتي البيت في الصباح حتى عودتي إليه بعد المغرب ليست إلا طريقا إلى لحظة أقصدها أختلي فيها بنفسي وأغربل هذا الكم الهائل الذي اختلطت فيه حبات القمح الأخضر بالحصى والقشر والطين إلى حد بدا معه أنه لا قمح هناك.. وصرت أتساءل إن لم تكن الحكمة تقتضي أن ألقي بذلك كله إلى سلة المهملات وأنتهي.

كان أبي قد استطاع أن يحتفظ لأكثر من ربع قرن بزوجتين إحداهما في العلن معترف بها ولا تعلم، والثانية في الظل لا يعرف بوجودها أحد وإن كانت هي تعرف بوجود الجميع.. فمن الطيب ومن الشرير في هذه الحكاية؟ وأي الزوجتين، الأولى أم الثانية، هي التي أخذت ما ليس لها؟ وأيهما الأولى أصلا؟ وهل زواج أبي من زينب يؤكد «نذالة البهوات»، أم يبرئه شخصيا من النذالة رغم كونه من البهوات؟

كانت الحكاية التي قصتها عليّ زينب عبد الحميد تطرح عليّ شيئا كاللغز.. فهل كانت لغزا رخيصا أم أنها الحياة تؤكد سقوط المسطرة والخط المستقيم؟ وهل كانت المرأة صادقة فيما سردته؟ وما هي حقيقتها؟ هل هي المرأة التي أحبت بوفاء وعمق فأعطت كل شيء وارتضت حياة الهامش بقرب الحبيب، أم أنها الفتاة الفقيرة اشرأبت بعنقها تطلعا إلى الفتى الثري الوسيم فما نالها إلا تقطع

جذورها في الأرض وذبولها بلا ثمر؟ وكيف لي أن أتعامل مع هذه الحكاية بموضوعية المشاهد الخارجي وأنا طرف لأن أبي وأمي طرفان فيها؟ وهل يكون موقفي هو نفسه لو كنت ابنتها ولست ابنة خديجة؟

تنهكني الأسئلة فأزداد نحولا بشكل ملحوظ يرده الناس إلى حزني على أبي، وتؤكد سميرة أن هناك ما يشغلني وأخفيه «فما الموضوع؟». أريد أن أحكي لها وأخشى أن تلقي في وجهي بحكم قاطع من أحكامها: «أبوك نذل والست زينب بلهاء أضاعت عمرها بلا ثمن!». لمن أحكي إذن؟ قررت السفر إلى سعد في الإسكندرية. هو لا يعلم شيئا ولكن الأمر يخصه. فالرجل أبوه والمرأة زوجة أبيه وأنا أريد التحدث مع من يفهم.

سافرت إلى الإسكندرية واستقبلني سعد وراندا في محطة القطارات. في الطريق إلى البيت وجدت سعدا منكمشا وعازفا عن أي حديث، وكل ما قاله قاله تهذبا ومجاملة، فماذا حدث؟ وعلى العشاء لم يقطع صمتنا سوى صوت الشوك والملاعق والسكاكين وصب الماء في الأكواب. تعشينا ورفعنا الأطباق عن المائدة ووقفت مع راندا في المطبخ وهي تعد القهوة.

- ماذا حدث يا راندا.. سعد ماذا دهاه؟

- منذ عاد من القاهرة وهو منكمش ومعرض. لا يذهب إلى عمله ويظل نائما حتى الثالثة بعد الظهر.. وعندما يستيقظ لا يخرج وفي الغالب يشكو من صداع حاد ويقول إن الضوء يصيبه بالغثيان. يفضل أن يجلس وحده بلا ضوء في حجرة النوم. وعندما ألح عليه

في الجلوس معي في الصالة يجلس كالغائب. أسأله: «هل نمت يا سعد؟» يقول: «لست نائما، أسمع ما تقولين، واصلي حديثك». ولكني أعرف أنه لا ينصت.

مسحت راندا دمعة بظهر يدها.

- سعد شديد الحزن على وفاة عمي كمال، هذا صحيح، ولكن الصحيح أيضا أنه معرض عني ولا يريدني.

- غير صحيح. إنه يحبك ويحتاجك. هو متعب. هذا كل ما في الأمر

ما أن شربنا القهوة حتى قالت راندا: «تصبحان على خير» وانسحبت إلى حجرة نومها وطلبت أنا من سعد أن ننتقل للجلوس في الشرفة. سعد يقطن في الطابق العاشر بعمارة لا تبعد كثيرا عن الشاطئ. في ضوء النهار يمكن رؤية البحر من زاوية بعينها من الشرفة. أما في الظلام فيبقى البحر حاضرا عبر صخب الأمواج وصوت ارتطامها بالشاطئ والرائحة النفاذة.

- ما بك يا سعد؟

- كما ترين!

- لم نعد صغارا.. والموت...

- ليست هذه هي المسألة.

- ما الذي تريده يا سعد؟

خلع نظارته فبدت عيناه الخضراوان تماما كعيني أبي وإن تميزتا عنهما بمسحة طفولية لم يفقدها مع الوقت.

- المشكلة يا سوسن أنني لم أعد أريد شيئا.. لا أريد أي شيء. ليست المشكلة في ذهاب بابا. المشكلة في ماما. لا أدري من أين أتتها هذه القدرة العبقرية على تحويل الأشياء إلى رماد؟ حبي لها، ارتباطي بها، أحلامي، فرحي، حزني، كل شيء.

- هذا ما فعلته في الماضي. أنت الآن مستقل عنها. هي في القاهرة وأنت في الإسكندرية، فلماذا الاكتئاب الآن؟

نظر إليّ بمزيج من عتاب وتساؤل:

- هل تغضين الطرف عن الحقيقة؟

- سوف أعد فنجانا من القهوة، هل آتيك بفنجان؟

قمت إلى المطبخ، ملأت الدلة بالماء ثم ألقمتها البن. ما الذي فعلته أمي بسعد؟ ولماذا فعلت ما فعلته وهي تحبه أكثر مني ومن زينب؟ فارت القهوة ولوثت موقد راندا الأبيض الناصع فانهمكت في البحث عن شيء أنظفه به. نظفته وغسلت الدلة وملأتها بالماء وألقمتها مرة أخرى بالبن ووقفت أتابعها بتركيز حتى لا تفور. سعد متعب. لم أره هكذا أبدا. لا مجال للحديث عن زينب عبد الحميد، أم أحدثه في الأمر لعله ينشغل به عن حزنه واكتئابه؟ فارت القهوة للمرة الثانية فبدا لي أني أصلح لمشهد في فيلم فكاهي صامت! ومع ذلك كنت حانقة على نفسي وأنا أعيد الكرة وأنظف الموقد وأملأ الدلة.. في المرة الثالثة لم تفر. سكبتها في فنجانين حملتهما إلى الشرفة. قال سعد:

كلما أنجزت أو حتى أردت إنجاز شيء جميل دمرته أمي

ودمرت معه جزءا مني. نسفت حلمي في أن أكون فنانا. وعندما ذهبت إلى باريس أتذكرين؟ أعادتني كالكلب. جرتني من رقبتي من الفندق إلى الطائرة. والمصيبة أنني تبعتها! كتبت لصديقتي الفرنسية التي ودعتها في المساء على أن نلتقي صباح اليوم التالي، كتبت لها أشرح وأفسر وأعتذر مرة ومرتين وثلاثا، ولم تجب إلا برسالة من سطر واحد: «لقد خذلتني وأعتقد أنك خذلت نفسك أيضا!».

- سعد كل ذلك انتهى. أنت الآن مستقل بحياتك و...

- أي حياة؟ الحقيقة أن صديقتي الفرنسية رغم صغر سنها حكيمة. أنا فعلا خذلت نفسي وها هي ذي حياتي الآن، بين يدي رماد!

- ولكنك طبيب لك دور. ثم إن هناك راندا والطفل القادم.

- طبيب دون المتوسط وزيجة لم أتحمس لها وطفل لا أريده.. ما أجملها من حياة!

كان وجهه شاحبا وشفتاه مرتعشتين.. وكان يحدق في كأنما يشهدني على ما يقول.

لم ينطق أي منا بكلمة بعد ذلك. جلسنا ساكنين على خلفية ارتطام الأمواج بالشاطئ وكسارات الموج حتى قمنا لننام.

لا أدري ما الذي أصابني. اعترتني رغم سخونة جسدي قشعريرة فتدثرت بالغطاء. رأسي يوجعني وصدري ثقيل كأنما أحمل عليه حجرا، وعظامي تؤلمني.. أحس بإعياء شديد يجعل مجرد تقلبي في الفراش مهمة صعبة أتجنبها. بقيت متعبة ومؤرقة فترة بدت لي طويلة لا نهاية لها. وعندما غفوت كان نومي متقطعا تخللته الأحلام والكوابيس.

في الأول رأيت أمي. كانت أصبى وأحلى، تلبس ثوبا ربيعيا من القطن المنقوش بالألوان الزاهية. كانت تضحك. ثم جاء شرطي وقال إنه يريد أن يحقق في حادثة القتل.. واقتادنا جميعا للتحقيق.

ثم دق ساعي البريد الباب. قال جئت لأعتذر عن الخطأ في البرقية. ليس أبوك الذي مات، ولكنها أمك. سألني. «ألست ابنة الست؟». أجبت: «نعم، لست ابنة الست، أنا ابنة الجارية!».

رأيت أبي. قال: «ليس بإمكانك أن تكوني طبيبة يا سوسن دون أن تدخلي المشرحة».. دخلت مكرهة وعندما كشفوا الغطاء عن الجسد المسجى بدأت أصرخ: «لا أريد!.. لا أريد!».

ولكن سعدا لم يصب بسوء. كان يقف بالقرب مني ويسألني هل تشعرين بتحسن؟ انحنى عليّ وابتسم بعذوبة فبدا وجهه وديعا وحانيا. راندا أيضا هنا. لا ليس حلما بل مشهدا واقعيا. أيقنت من ذلك. فانتبهت لكوني مريضة في السرير.

لزمت الفراش عشرة أيام. في اليومين الأولين اعترتني حمى.. ثم انخفضت الحرارة إلى معدل أقرب للطبيعي وإن بقي الإعياء وآلام الرأس والصدر. وجاءت أمي من القاهرة. وشعرت للحظة أن حالة من التواؤم تحتويني وكل من في البيت.

٥

- إني ذاهبة!

قالتها سميرة وهي تغادر مقعدها وتخترق صفوف الجالسين في القاعة قاصدة الباب. لحقت بها على الدرج وقلت بشيء من احتجاج:

- كنت أرغب في الاستماع إلى المحاضرين حتى النهاية.

- ولماذا لم تبقي؟

- لأنك قمت، فلماذا قمت؟

- لأن مرارتي لم تعد تحتمل!

سرنا في الشارع الكبير المؤدي إلى الميدان. لم تقل شيئا ولم أقل شيئا. وعندما وصلنا الميدان اقترحتُ أن نجلس في مقهى لنتناول الشاي، ولكنها قالت إنها تفضل العودة إلى البيت. اقترحت أن تأتي لقضاء الليلة معي. رفضت.

ربما أخطأنا في الذهاب إلى تلك الندوة. كان الأمر كئيبا، وسميرة على حق. كان المتحدثون ثلاثة أحدهم وزير سابق والثاني كاتب

سياسي معروف والثالث نقابي بارز قضى ثلاثة عشر عاما من عمره في معتقل الواحات لنشاطه السياسي. ربما دفعنا للذهاب حب استطلاعنا بشأن اجتماع ثلاثتهم في تلك الندوة وإن كانوا سيقدمون مواقف متباينة أم عكس ذلك. بعد دقائق من بدء ثالث المتحدثين وهو خريج الواحات غدا واضحا أن الأمر «عكس ذلك».

ما الذي يجعل مناضلا قديما يصاب بالحول فيفشل في رؤية الحقيقة التي لا تفوت تلميذا منتبها بالسنة الأولى بالجامعة؟

اختلفت مع سميرة حول الدكتور عبد الموجود إسماعيل حتى بعد أن قطعت علاقتي به. وكان أمين يناصرني فننبري معا للدفاع عنه. وكانت هي تكرر بعناد: «إنه انتهازي وسوف تثبت لكما الأيام!». أثبتت الأيام أنه أكثر تعثرا مما قدرت. وكان ينشر تلك المقالات المطولة في الجرائد يطلق فيها الفتاوى والتحليلات التي تتنكر لأبجديات الصراع الاجتماعي الذي كان هو نفسه أول من فتح عيوننا عليها في الجامعة. كف أمين عن الدفاع عنه وكدت أنا أيضا أكف لولا شراسة سميرة في هجومها عليه الذي كان يستفزني للرد. أقول لها:

- إنه يخطئ لا أختلف معك في ذلك ولكنه حسن النية وهو لا يقول ما يقوله ارتزاقا. إنه يجتهد فيما يعتقد أنه الصواب، وهذا إنساني ومشروع!

فتشتعل سميرة غضبا وتلقي بإجاباتها كمدفعية ثقيلة:

- لا يا حبيبتي هذا ترف! عندما يلبس عبد الموجود إسماعيل عمامة مفتي الديار ويشرع في وجوهنا ما يدعي أنه مفتاح الحقيقة

ويرهبنا بمركزه العلمي إلى حد تكذيب أنفسنا والمشي وراءه إلى سكك الخيبة والندامة. لا أقول مسكين أخطأ دون قصد وهذا إنساني ومشروع، بل أقول يميني ومخرب وابن ستين كلب!

وصلت إلى البيت وأعددت لنفسي كوبا من الشاي وشريحة من الخبز بالجبن. وقد تملكني السؤال: «من أين تأتي الغشاوة على العيون؟». كان الجالسون على المنصة هذه الليلة سواسية مختوما على قلوبهم. أقلقني الأمر وأغاظني. ولكني لم أشعر بذلك الغضب المر الذي شعرت به سميرة. فهل موقفها هو الموقف الطبيعي الأصيل، أم أن المسألة ثأر شخصي يلون رد فعلها بهذا العنف القاتم؟ هل حكاية أمين هي المحرك، أم أن هذه الحكاية نفسها هي الدليل والأمارة على أنها محقة في مرارتها وعنف إدانتها؟

آويت إلى فراشي وحاولت النوم ولكنه استعصى: أتاني بدلا من النوم أمين حاضرا كأننا لم نواره التراب قبل عامين تميزه نفس النظرة الآسرة التي تمتزج فيها الدهشة بشيء من عتب.

عرفت أمين قبل أن أعرف سميرة، وهو الذي حدثني عنها عندما وقع في حبها. كان قد جاء إلى العاصمة من قريته في الريف حاملا سلة بها ملابسه ونسخة قديمة من ألف ليلة وليلة وكتاب المعذبون في الأرض لطه حسين.. وبقي حتى درس في الجامعة وتخرج منها على حيائه الريفي. لم تواته الجرأة على قول كلمة أحبك لسميرة.. عرض عليها الزواج فوافقت، فأرسل إلى والده في البلد ليأتي لخطبتها. وأتى. وكانت المرة الأولى التي يزور فيها القاهرة. يوم الخطبة. قال وهو يضحك: «لا أخفي عليكم عندما أخبرني أمين برغبته في الزواج

من زميلة له في الجامعة كدت أقول له: «مالنا نحن وبنات مصر؟». ثم قلت لنفسي: «أنت أرسلت ابنك إلى القاهرة ليتعلم ويتنور.. اتركه يختار من تليق به».. ثم وهو يواصل ضحكته ويربت بيده على صدره: «وكان نعم الاختيار ونعم النسب!»، فتورد وجه خالتي سيدة وابتسم عم مصطفى باعتداد. أما سميرة فأجابت ضاحكة: «لا تتسرع يا عمي! انتظر عندما نعيش معا وستكتشف أن زوجة ابنك ليست بسيطة!».

ولكنهما لم يعيشا معا. ذهب أمين. دهمته سيارة وحمله المارة الذين لا يعرفونه غارقا في دمه. هل كان قضاء وقدرا؟ هل كان يسير محدقا في همه الثقيل فلم ير السيارات المسرعة في الطريق، أم قصد أن يقتل نفسه وقد تمكن اليأس منه؟

«انتحر؟».. تقول سميرة مستنكرة وهي تكاد تثب متنمرة على من يجرؤ على النطق بها. «مستحيل لأنه حدثني بالتلفون قبل الحادث بساعة واحدة وقال لي إنه خرج لتوه من بيت عبد الموجود. قال: «تشاجرنا! قلت له إنه سافل! فانقض عليّ وكاد يكسر ذراعي، وكدت أطبق على عنقه، ثم قلت لنفسي عمرك خسارة يا ولد يضيع على كلب!». فكيف يقول هذا الكلام إن كان ينوي الانتحار؟ ثم إن أمين ليس الإنسان الذي ينهي حياته بيديه. دمه في رقابهم مهما قالوا وادعوا!».

في الليلة السابقة على الحادث التقى بها أمين وأخبرها أنه سيذهب إلى عبد الموجود إسماعيل لينقل له رأيه في كتابه الأخير حاولت سميرة أن تثنيه. قالت له لا داعي ولا فائدة! وربما كان من الأفضل

أن يفتضح أمره هو وأمثاله لكي لا يمشي وراءهم أحد. ولكن أمين أصر. قال إن من حقه وواجبه أن يسمعه ما لديه: «هو يعلن نفسه مفوضا باسم الغلابة، أليس كذلك؟ أريده أن يعرف أنني والعشرات من أمثالي نعتقد أنه يبيع الغلابة بثلاثين قرشا!».

سميرة موقنة أن أمين لا يمكن أن ينهي حياته قاصدا. وأنا أتساءل لأني رأيت كيف كان أمين في الشهور الأخيرة مرهقا إلى حد الجنون. فهو مصاب بصداع يجعله غير قادر على فتح عينيه على اتساعهما، أو يشكو من آلام المعدة، وبشعور قائم بالغثيان، أو مشتعلا بالغضب ينهي نقاشه بالسباب وأحيانا بالتشابك بالأيدي. قلت لسميرة:

- هل يمكن أن يكون أمين متعبا إلى هذا الحد لمجرد الاختلاف مع ما يطرحه رفاقه من أفكار سياسية؟

استفزها كلامي:

- تطرحين الأمر بشكل غريب عجيب، كأن الاختلاف على طريقة طهو السبانخ. ليست المسألة اختلافا. إنه شعور صادم بخيبة الأمل والخذلان، كأنك كنت تتبعين كبيرا انتميت له وآمنت به ثم اكتشفت أنه قواد يبيعك مع أول منعطف!

كدت أقول لها إنها تبالغ ولكني لم أجرؤ، فقد كانت منفعلة ولم أرغب في تعقيد الأمور.

سميرة أصغر مني ومن أمين، ومع ذلك فهي أكثر رسوا وحسما. قررت منذ سنوات أن عبد الموجود انتهازي وأنه وجماعته لا يصلحون. لم تقبلهم في أي وقت وكانت تنظر إليهم بعين الشك.

ساعتها لا أنا ولا أمين صدقناها، فهل كانت على حق منذ اللحظة الأولى، أم أنهم كانوا يصلحون ثم فسدوا ولم يعودوا كذلك؟ وهل كنا أنضج منها أم كنا أغبياء؟

كيف يأتي النوم؟ ومن أين يأتي والأسئلة تتكاثر عليّ وتطن في رأسي وتعذب كأنها ربات العقاب؟

كان الرجال الثلاثة الجالسون على المنصة هذا المساء شديدي الاختلاف في مظهرهم.. فالوزير السابق له رأس كالبيضة يؤكد شكلها صلعة لافتة اللمعان. كان في كامل ملابسه الرسمية كأنه ذاهب لعقد قرانه. أما الكاتب فكان شعره الرمادي خشنا مهوشا أطول قليلا من المعتاد. وكان يلبس سترة صيفية قصيرة الكمين عليها أثر كرمشات تشي بأنه عندما خلعها في الليلة السابقة نسيها على مقعد جلس عليه بعض أفراد الأسرة. أما النقابي القديم فقد كان رجلا مسنا تكثر في وجهه التجاعيد. يميزه شعر قطني ويلبس قميصا سمنيا بكمين طويلين ويزرر قميصه حتى أعلى الرقبة رغم أنه لم يكن يلبس رباط عنق.

بدوا مختلفين في الشكل والملبس وحتى في أسلوب الحديث. فقد تحدث الكاتب بالفصحى السلسة. وتنقل الوزير ما بين الفصحى والعامية، وكان يخطئ في الحالتين.. أما النقابي فكان كلامه بعامية بسيطة ومؤثرة. ورغم الاختلاف كادوا يتفقون فيما قالوه وكأنهم قرأوا على نفس الشيخ واتفقوا مسبقا فيما بينهم.

قبل سنوات قليلة كان مشهد كهذا كفيلا بهز ثقتي فيما أعتقد. أقول ما دام هؤلاء الناس على اختلاف مواقعهم قد اتفقوا على

قول هذا الكلام فلا بد أنه الحقيقة ولا بد أنني المخطئة. أشك في نفسي وأكذبها. الآن لم أعد أفعل ذلك. وعاد السؤال الذي يشغلني هو. «ما الذي يجعل اليمين واليسار والوسط يجمعون على نفس الشيء؟». حين أطرح السؤال على سميرة تجيب بلا تردد: «كلهم يمين، لماذا لا تبصرين ما أبصر؟». تكرر في احتجاج: «صدقيني، لماذا لا تصدقينني؟».

الأمر المدهش في سميرة أنها رغم شكوكها الغالبة تثق ثقة مطلقة في الناس وتظل تكرر. «الناس حلوين مثل الفل». وعندما أقول لها وأنا ابتسم. «وأولئك الذين تسلطين عليهن لسانك بلا رحمة أليسوا أناسا؟». فتجيب: «أتحدث عن الناس العاديين الذين لا يدَّعون شيئا، همومهم كثيرة وعيوبهم كثيرة، ولكنهم لا يدعون أنهم سفراء ومبعوثون وقادة وثوار وقابضون على حقيقة الدنيا والآخرة.. عندما أقول ناس افهمي أني أقصد الغلابة!». فأستغرب منطقها وأستغرب إيمانها المطلق بما تقول، وأستغرب أكثر تجاور اليقين والوسواس في صدرها. أحيانا أقرر أنها حادة ومتطرفة.. وأحيانا أتساءل إن لم تكن أعفى مني وأنضج وأكثر جرأة.

٦

قمت بإجازتي السنوية وعندما عدت إلى عملي أُبلغْت أن سيدة تدعى زينب عبد الحميد اتصلت تلفونيا عدة مرات، فقدرت أنها تريدني لأمر ضروري. ذهبت لزيارتها بعد انتهائي من العمل. وعندما طرقت بابها فتحت لي فتاة لا أعرفها. فهمت منها أنها تقوم بلوازم البيت وترعى زينب عبد الحميد التي كانت تلازم الفراش منذ أسابيع.

وجدتها ترقد في سريرها. وبدت لي متوجسة من حالتها الصحية وإن لم أر فيها ما يدعو للتوجس. كانت أكثر نحولا وبوجهها شحوب وشيء من الوهن. ولكنها تحدثت معي بشكل عادي ونادت على الفتاة التي كان اسمها نادية وطلبت منها أن تعد لنا القهوة. وعندما قمت للانصراف أصرت على مرافقتي إلى الباب.

زرتها مرة أخرى بعد أسبوع وتأكدت أنها تواظب على ما وصفه لها الطبيب من دواء. أكدت عليها أن تتصل بي لو احتاجت إلى أي شيء. لم تكن صحتها قد تحسنت ولكنها أيضا لم تكن قد تدهورت. قبل أن أنصرف كتبت عنوان البيت للشغالة ورقم تليفوني في العمل.

بعد يومين استيقظت على طرق محموم على الباب.. ولما فتحت

وجدت نادية باكية. قالت إن زينب عبد الحميد استيقظت قبل ساعتين وقامت إلى الحمام. وتقيأت. ثم سقطت في غيبوبة. وكان التاكسي ينتظر بالباب.

وجدتها في السرير مغمضة العينين بلا حراك. كانت فعلا في غيبوبة. اتصلت بطبيب من زملاء سعد. جاء ثم جذب الغطاء على وجهها وأمسك بيدي وهو يصطحبني إلى خارج الغرفة ويغلق الباب عليها: «إنها ميتة يا سوسن!» «ميتة، كيف؟» «ميتة!». كنت قد أخبرته أنها والدة صديقة لي مسافرة في الخارج. طلب مني بطاقتها ليستخرج شهادة وفاة وذهب.

الباب مغلق على المرأة التي فارقت الحياة. ونادية تنتحب. وأنا أفكر: «ما العمل الآن؟». لم يكن أمامي إلا سميرة. اتصلت بها في مكتبها. أفهمتها ما حدث. قالت: «سأتصرف». بعد ساعة كانت سميرة عندي. قالت إنها مرت بالبيت وأخبرت أهلها أن امرأة من معارفنا توفيت «وأننا في مقام أولادها المسافرين في الخارج». «أمي ستلحق بي بعد قليل. وأبي ذهب ليقوم باللازم».

- سوسن لم تقولي لي أبدا أن لأبيك زوجة ثانية؟

- لم أعرف بالأمر إلا العام الماضي.

- العام الماضي؟

توقعت أن تسألني أكثر. ولكنها لم تفعل. وجلسنا صامتتين حتى جاءت خالتي سيدة وفي أعقابها عم مصطفى يصطحب امرأة بدينة متوسطة العمر تلبس ثوبا أسود وتحمل في يدها لفافة كبيرة، ورجلين

يحملان نقالة معدنية. دخل أربعتهم إلى الحجرة المغلقة. ثم خرج عم مصطفى والرجلين وبقيت المرأة البدينة التي سمعتها تطلب من نادية أن تسخن ماء. وتضيف بلهجة قوية آمرة: «أريد الماء دافئا وليس شديد السخونة!». ثم: «نادي على الستات».

دخلنا الحجرة. كان الرجال قد أفسحوا مكانا للنقالة المعدنية ونصبوها. أما زينب عبد الحميد فكانت على حالها في السرير مغطاة كما تركها الطبيب. وكانت السيدة البدينة قد جلست على مقعد مجاور للسرير وفتحت اللفافة التي أتت بها. كان بها أمتار من الحرير ومنشفة وزجاجة ماء ورد.

أمسكت المرأة بخيط ولضمته في إبرة. ناولتها لخالتي سيدة التي أمسكت بقطعتين من القماش الأخضر وراحت توصلهما بعضهما ببعض ليصبح عرض القماش مزدوجا. أعطتني المرأة قماشا أبيض وأعطت مثله لسميرة فبدأنا نحذو حذو خالتي سيدة. كنا نعمل في صمت لم يقطعه إلا صوت المقص عندما أمسكت المرأة به وأعملته في قطعة من القماش. وكان الهواء في الحجرة ثقيلا كأنه مادة تتيبس في الرئتين وتتحول إلى حجر.

ثم أحضرت نادية الماء وتعاونت خالتي سيدة مع المرأة البدينة في نقل زينب عبد الحميد من فراشها إلى السرير المعدني. ثم خلعت عنها ملابسها وخاتمها الذهبي الذي كان في بنصرها الأيسر وسلسلة تنتهي بحلية من الذهب على شكل قلب. وضعت المرأة الملابس جانبا وأعطت الحلي لخالتي سيدة التي أعطتها لي فوضعتها في جيبي.

كانت زوجة أبي مسجاة أمام عيني عارية تماما. بدت لي نائمة سوف تصحو بعد قليل حتى إنني جفلت عندما سكبت المرأة دفعة ماء من كوز معدني على الجسد الساكن. وبدأت بتصبين الشعر والوجه والأذنين والعنق. تصبن ثم تسكب الماء في دفعات قوية وهي تردد بصوت جهوري.

لا إلـــــــــه إلا اللـــــــــه

لا إلـــــــــه إلا اللـــــــــه

في الموت الشهادة وساعة الولادة

لا إلـــــــــه إلا اللـــــــــه

ثم تنتقل إلى الصدر والذراعين والبطن والفخذين والساقين. تصبن وتغسل بالماء:

انزلي قبرك. سلمي على أهلك

قوليلهـم آنسناكـم يا عبـاد الله

لا إلـــــــــه إلا اللـــــــــه

كانت الدموع تغطي وجه خالتي سيدة وهي تنحني على الماء تغترف منها وتسكب على الجسم المسجى وتكرر بلا انقطاع:

لا إلـــــــــه إلا اللـــــــــه

لا إلـــــــــه إلا اللـــــــــه

والمرأة السمينة تواصل عملها. تصبن الجنب الأيمن والظهر والمقفى. ثم تصبن الجنب الأيسر وتصب الماء وهي تردد:

مقعدك مقعد الكرامة

خرجتك خرجة الشرف

لا إله إلا الله

ثم تحرك يدها بإيقاع متسارع تملأ الكوز وتلقي بما فيه بقوة المرة تلو المرة على الجسد كاملا من شعر الرأس حتى أصابع القدمين:

لا إله إلا الله

لا إله إلا الله

لا إله إلا الله

ويبدو الصوت كجوقة كاملة رغم صمتي وصمت سميرة وصمت نادية التي التصق ثوبها بصدرها مبللا بالعرق ورذاذ الماء المتطاير والدموع.

جففت المرأة السرير المعدني بمنشفة ثم جسد زوجة أبي بمنشفة أخرى. تطلعت إلى الجسد المغسول فعاودني الشعور بأنها نائمة. في سكونها عذوبة وصفاء. كانت طويلة ونحيفة. سمراء سمرة رقراقة كالقهوة الشقراء. لم يكن بالجسد المسجى شيء من الترهل لا في الثديين الصغيرين ولا في البطن والفخذين. وكان الوجه وديعا غطته المرأة البدينة بقطعة من الشاش أعقبتها بقماشة بيضاء على الصدر. ثم فردت ثلاث راقات من القماش القطني الأبيض غطتها بالحرير الأصفر فالأخضر وأخيرا بقماش حريري أبيض رقيق به زركشات وتجعيدات من نفس لونه. ثم أفرغت زجاجة ماء الورد

عليه. بعدها أمسكت بطرف الأقمشة السبع وأمسكت خالتي سيدة بالطرف المقابل وقلبتاه معها.. ثم أدخلتاه تحت الجسد الذي أصبح ملفوفا في الكفن. وجاء الرجال. حملوها وذهبوا.

بكت خالتي سيدة طويلا وهي تكرر أن المسكينة ماتت من دون أن ترى أولادها البعيدين في الغربة. تبكي وتكفكف دمعها ثم تقول كأنما تواسي نفسها: «لكن ربنا أوقف لها أولاد الحلال، لأنها أكيد كانت بنت حلال.. الله يرحمها».

وعندما عاد عم مصطفى بعد ساعتين قال موجها حديثة إليّ: «اكتبي لأولادها يا سوسن: كان كل شيء متيسرا. كانت طائرة كالريشة ونحن نحملها على أكتافنا ونهرول للحاق بها. اكتبي لهم كان كل شيء متيسرا والحمد لله». ساعتها بكت سميرة. انسالت الدموع من عينيها غزيرة ومدرارة فبكت أمها معها.

أقمت ببيت زينب عبد الحميد ثلاثة أيام. قلت لأمي ما قالته سميرة لأمها بأن التي ماتت هي أم صديقة لنا مسافرة. فقالت أمي: «وما شأنك أنتِ؟ وهل تبحثين عن المتاعب بحثا؟». وقلت للجيران الذين أتوا للعزاء إن المتوفاة خالتي وإن أمي وباقي إخوتي يقيمون في أسوان ولم يتمكنوا من المجيء. وقلت لأصدقائي إن المرأة أخت أبي في الرضاع وليس لها أهل إلا نحن. كنت أكذب طول الوقت! أؤلف حكاية مقبولة للبعض وأغيرها تماما لتصبح مقبولة للبعض الآخر.. وأشعر في نهاية اليوم بإنهاك هائل وضيق في صدري، فما الذي كان يحدث لو لم تقم سميرة معي تلك الأيام؟

مساء اليوم الثالث أغلقنا باب الشقة بالمفتاح الذي سلمناه لبواب العمارة ليعيده إلى صاحب البيت ومضينا. سميرة تحمل في يدها حقيبة صغيرة بها صور ورسائل متبادلة بين أبي وزينب عبد الحميد. وأنا أحمل في جيبي السلسلة الذهبية والخاتم الذي نقش عليه اسم أبي.

٧

- هل أخبرك سعد بسفره؟

- لم يخبرني.

- أخوك جبان! سافر سرا كأنه لص، ولم يترك إلا هذه الرسالة لزوجته.

كلام مقتضب في سطور قليلة قرأتها ثم طويت الورقة وأعدتها إليها.

- لم يعطك عنوانه إذن؟

- لم يقل لي إنه ينوي السفر!

قمت لأعد فنجانين من القهوة. كان الأمر مقبضا بما لا يطاق. هل تريد عنوانه لكي تذهب إليه مرة أخرى وتعيده قسرا؟ أمي لا تتعلم ولا تتوب كأنها قطار سكة حديد يجري إلى مقصده لا فرق إن كانت على جانبيه ملاعب للأطفال أو قرى متفحمة.. أي قطار! وأي حديد! وجهها شاحب وعيناها غائرتان بهما آثار بكاء وأرق. إنها قلقة إلى حد الفزع، فلماذا أظلمها؟

أقامت أمي الدنيا ولم تقعدها بحثا عن سعد. رجحتْ أنه سافر إلى باريس أو روما فاتصلت تلفونيا بالمعارف والأصدقاء في هاتين العاصمتين تطلب منهم البحث عنه. علق مجدي ساخرا: «الخطوة القادمة لخديجة هي تبليغ الإنتربول وتكليفهم بالقبض على الولد حيا أو ميتا!». فزجرته زينب.

بعد ستة أسابيع من سفره وصلتني رسالة من سعد: «كان السفر ضروريا.. مجرد محاولة قد تنجح لوصل ما انقطع، وإحياء المشروع القديم. سأحاول أن أنتظم في الدراسة وأعود إلى الرسم. صحتي جيدة. تلازمني الوحشة وأحيانا أشعر بالخوف. ولكني ما زلت أتطلع إلى طاقة صغيرة مفتوحة في الجدار. أفتقدك يا سوسن وأعرف أن وجودك ولو في البعد سند هائل لي».

عنوان سعد الذي يؤرق أمي البحث عنه معي مكتوب بخط يده على الخطاب الذي أرسله إليّ من باريس. أحمله في حقيبتي. أريد أن أعطيه لها فترتاح، وأخشى أن يؤدي ذلك إلى حادث مؤسف جديد. أقرر أن الحكمة تقتضي ألا أعطيها العنوان. ويلازمني شعور بالذنب وإحساس موجع بأنني أقسو عليها.

قررت أن أقول لها إن سعد اتصل بي تليفونيا من باريس.

قال: «إنه يشتاق لك كثيرا ويريد الاتصال بك ولكنه لا يجرؤ لأنه يعرف أنكِ غاضبة».

- هل تكذبين؟

- ولماذا أكذب؟

- هل قال لكِ سلمي على ماما؟

- قال سلمي عليها. وقال إنه يفتقدك ويقلقه أنه تصرف بما يغضبك.

- لماذا إذن لا يعود؟

- لأنه يريد أن يتعلم الرسم ويرسم.

- إنه ولد طائش. لو اتصل بكِ مرة أخرى قولي له إنه لم يعد يعني لي شيئا. لم أعد أمه ولا أريد أن أكون. عندما يتصل اطلبي منه رقم تليفونه والعنوان.

سعد يكتب لي رسائل وبطاقات تثير القلق. أفضي لسميرة بما أشعر به تقول:

- سعد مترف وهش. اكتبي له يا سوسن. اكتبي له أنه ما دام اتخذ قرارا جريئا وقاطعا بهذا الشكل فليجمع شتات نفسه ويتصرف بالمسئولية اللائقة ويبدأ في إنجاز ما يريد.

- الكلام سهل يا سميرة والإنسان ليس آلة.

- ومن قال لك إنه آلة؟ ولكن هناك شيئا مترفا في اكتئاب سعد.

- إنه حزين ومهزوم ويبحث عن مخرج.

- أحيانا لا أفهمك يا سوسن. إن كان سعد مهزوما، فلماذا لم يبق بهزيمته ويتحمل مسئولياته كطبيب وزوج؟

- أنت لا تفهمين.

- أنت على حق. قدراتي لا تمكنني من الفهم.

قالتها بحدة ساخرة كأنها تلقي بالكلمات في وجهي.

مكتئب على طريقة المترفين، أم حزين حزن المحاصر؟ لم يعد هو السؤال فقد ذهب سعد.

عندما دخل عليّ مجدي ذلك الصباح عرفت قبل أن ينطق.

- سأسافر بعد ساعات لأن سعد بالمستشفي. ارتدي ملابسك سأوصلك إلى أمك.

- انتحر؟

- شدي حيلك.

تحاشى التقاء العيون، فعرفت أنه ذاهب ليعود به محمولا في نعشه. أوصلني إلى بيت أمي. مد يده لمصافحتي وأجهش بالبكاء. وقفت في الشارع أمام باب العمارة أتابع سيارته وهي تبتعد.

ألقى سعد بنفسه تحت عجلات القطار المقبل بسرعة إلى محطة مترو الأنفاق، فهل كان قرارا مبيتا حمله إلى ذلك النفق المظلم ينتظر الوحش المقبل باتجاهه بحدقتين مرعبتين، أم أنه كان خاطرا مباغتا داهمه فجأة فنفذه بلا تفكير؟ أم هل زلت قدمه فسقط بلا وعي أو إرادة تحت عجلات القطار؟

ذهب الفتى الجميل الذي كنت أحبه لأنه أخي، وأحبه لأنني لم أر رجلا في عذوبته. أبكيه بحرقة حتى عندما تجف دموعي ولا أبكي. أبكيه لأنه أخي. وأبكيه لأنه كان جميلا. وأبكيه لأنه مات قبل الأوان. وأشفق على أمي التي بدا لي أن موت سعد سيجعلني أنفر من مجرد

رؤيتها. أرى فجيعتها فأعرف أن ألمها أعظم، وأجدني أتساءل: لماذا قسا سعد هكذا عليها؟

عاد مغلفا في صندوق وواريناه التراب وذهبنا.

*

رأيته وهو يدفع بالباب الزجاجي خارجا من إحدى شركات الطيران. لم يعد الولد الذي يؤكد نحول جسده وملابسه أنه ولد. كان هادي الآن رجلا ربعة في منتصف عقده الرابع. بجسده شيء من امتلاء وإن لم يكن ممتلئا. تشي قصة شعره وإطار نظارته وهيئة شاربه وملابسه البسيطة المنتقاة رغم ذلك بعناية باليسر المادي والمكانة الاجتماعية.

حياني بصخب وحرارة. ولم أكن قد التقيته منذ أكثر من عشر سنوات. استفسر عن ملابس الحداد التي أرتديها فقلت له. أخبرني أنه مسافر في اليوم التالي وأنه يعمل منذ سنوات مدرسا للأدب العربي بجامعة هولاندية. قال قد لا نلتقي قبل سنوات. ودعاني لتناول الغداء معه فقبلت. وعلق ونحن ندخل إلى القاعة المكيفة لمطعم بأحد الفنادق الكبيرة: «هنا على الأقل بإمكاننا أن نجلس بشكل إنساني بعيدا عن الحر والرطوبة الخانقة».

جلسنا وطلبنا كوبين من عصير الليمون واخترنا ما سوف نتناوله من طعام. بدا ونحن نجلس صامتين أننا لن نجد ما سوف نقوله. لم يسألني عن سميرة ولم أعرف إن كان قد علم بوفاة أمين. تحدث عن عمله ودراساته، عن حياته في هولندا. قال إنها سهلة وهادئة رغم

لحظات الشعور بالغربة. قال إنه تزوج مرتين ولم يوفق. وسألني إن كنت قد تزوجت. وأتى النادل بالطعام فأكلنا. ولما انتهينا غادرنا المطعم وذهب كل منا في سبيله.

في الشارع لفح الهبو الساخن وجهي وبدت الرطوبة أشد وطأة بعد ساعتين من الجلوس في قاعة مكيفة الهواء. كان اليوم قائظ الحرارة. الشمس تقدح والهواء مزموم والأرض كالنار تذيب الأسفلت. وكغيري من المارة سرت مسرعة اتقاء للحرارة. وكنت أتساءل إن كانت شدة الرطوبة هي التي تثقل صدري أم أنه شعور بالضيق. سرت حتى وصلت الميدان الكبير.

هذا ميدان كبير، كالمدينة به كل شيء: البناية الفخمة والبيت العتيق الذي يقاوم بلاء الزمن، والفندق والبنك وشركة السياحة والمحل التجاري والمقهى القديم والمتحف المصري والجامعة الأجنبية، والكشك الخشبي الذي يبيع أشرطة الشيخ عبد الباسط وأم كلثوم، وبائع الجرائد ومحطة الأتوبيس والطريق الصاعدة بالسيارات إلى جسر معلق، والسلالم التي تهبط بالناس إلى نفق أرضي للمرور، وسيارة الأمن المحشوة بالجنود الفقراء، وماسورة ماء الصرف الصحي المكسورة حولها بركة الماء الآسن ونافورة الزينة. كل شيء في هذا الميدان الذي يتوسطه نصب تذكاري للشهداء. أتطلع إلى الميدان فتلتقط عيني بين سيل السيارات المندفعة سيارة سوداء من ذلك النوع الشائع في نقل الموتى لا تشبه تلك السيارة الأخرى التي استوقفتني من قبل يجرها جوادان مطهمان وتزينها ملائكة صغيرة مطلية بطلاء مذهب، كانت سيارة كئيبة وجرداء كمضمونها.

«هذا ميدان كبير».. كررت لنفسي وأنا أتطلع إلى المارة وهم يعبرون ركضا في حذر متوجس. لم تكن هناك أرصفة ولا خطوط لعبور المشاة. إنه ميدان كبير وعليّ أن أعبر بحرص كي لا تدهمني سيارة مسرعة فأفقد حياتي بلا ثمن.

صدر للكاتبة

روايات ومجموعات قصصية:

١ ـ الصرخة (الجزء الثاني من كتاب أثقل من رضوى)، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى ٢٠١٥

٢ ـ أثقل من رضوى (مقاطع من سيرة ذاتية) دار الشروق، القاهرة ٢٠١٣ الطبعة الثالثة، دار الشروق، ٢٠١٤

٣ ـ الطنطورية (رواية) دار الشروق، القاهرة، ٢٠١٠ الطبعة السادسة، دار الشروق، ٢٠١٤

٤ ـ فرج (رواية) دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٨. الطبعة الثانية دار الشروق، ٢٠١٠

٥ ـ قطعة من أوروبا (رواية)، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٣ الطبعة الثانية دار الشروق، ٢٠٠٦

٦ ـ تقارير السيدة راء (نصوص قصصية)، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠١ الطبعة الثانية، دار الشروق، ٢٠٠٦

٧ ـ الرحلة: أيام طالبة مصرية في أمريكا، (نص سيرة)، دار الآداب، بيروت، ١٩٨٣، مكتبة مدبولي ١٩٨٧، طبعة دار الشروق الأولى، ٢٠١٥.

٨ ـ حَجَر دافئ (رواية)، دار المستقبل العربي، القاهرة، ١٩٨٥، طبعة دار الشروق الأولى، ٢٠١٥

٩ ـ خديجة وسوسن (رواية)، دار الهلال، القاهرة، ١٩٨٧، ١٩٨٩، طبعة دار الشروق الأولى، ٢٠١٥

١٠ ـ رأيت النخل (مجموعة قصصية)، سلسلة فصول، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧، ١٩٨٩، طبعة دار الشروق الأولى، ٢٠١٥

١١ ـ سراج (رواية)، دار الهلال، القاهرة، ١٩٩٢ (طبعة واحدة) طبعة دار الشروق الأولى، ٢٠٠٨، طبعة دار الشروق الثالثة ٢٠١٤

١٢ ـ ثلاثية غرناطة، دار الهلال، القاهرة، ١٩٩٤-١٩٩٥ الطبعة الرابعة عشرة، دار الشروق، ٢٠١٥

١٣ ـ أطياف (رواية)، دار الهلال، القاهرة، ١٩٩٩ (طبعتين). طبعة دار الشروق الأولى ٢٠٠٨، طبعة دار الشروق الثانية ٢٠١٤

دراسات نقدية:

١ ـ الطريق إلى الخيمة الأخرى: دراسة في أعمال غسان كنفاني، دار الآداب، بيروت، ١٩٧٧

٢ ـ جبران وبليك Gibran and Blake (باللغة الإنجليزية)، الشعبة القومية لليونسكو، القاهرة، ١٩٧٨

٣ ـ التابع ينهض: الرواية في غرب إفريقيا، دار ابن رشد، بيروت، ١٩٨٠

٤ ـ في النقد التطبيقي: صيادو الذاكرة، المركز الثقافي العربي، بيروت والدار البيضاء، ٢٠٠١

٥ ـ بالاشتراك مع آخرين، ذاكرة للمستقبل، موسوعة الكاتبة العربية: ١٨٧٣-١٩٩٩، مؤسسة نور لدراسات وأبحاث المرأة والمجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٤

٦ ـ الحداثة الممكنة: الشدياق والساق على الساق، دار الشروق، ٢٠٠٩ الطبعة الثانية ٢٠١٢

الترجمة:

١ ـ الإشراف على ترجمة: القرن العشرون: المداخل التاريخية والفلسفية والنفسية (الجزء التاسع من موسوعة كمبريدج لتاريخ النقد الأدبي)، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٥

٢ ـ ترجمة منتصف الليل وقصائد أخرى لمريد البرغوثي.

Mourid Barghouti, Midnight and Other Poems, Trans. Radwa Ashour, Arc, Todmorden, 2008.

خديجة وسوسن

هل نعرف الحب حقًا؟!

غالبًا ما نعطيه أشكالًا كثيرة لا علاقة لها به، نتصور أننا نحب أولادنا، أحباءنا، آباءنا؛ فنملكهم. وترتبك حساباتنا إن لم يُظهروا ما نتوقعه من ولاء، ونقاوم حريتهم بمزيد من الكبت والسيطرة فننتج أشخاصًا يسيئون لأنفسهم ولمن حولهم دون وعي. خديجة وسوسن هما أم وابنتها، وهما نتاج هذا المفهوم الخاطئ للحب والملكية؛ فحياتهما تجسيد لأقسى صور الأنانية في البشر؛ وقد دفع ثمن ذلك كل من حولهم وكل من تصوروا أنهم أحبوهم. سرد بديع وشخصيات غنية ولا يغيب التاريخ عن كتابات رضوى عاشور، وقد أتت الأحداث التاريخية والشخصيات معشقة بمهارة في أحداث الرواية.

رضوى عاشور (١٩٤٦ - ٢٠١٤): روائية وناقدة وأستاذة جامعية مصرية. درست الأدب الإنجليزي في جامعة القاهرة. حصلت على الماجستير في الأدب المقارن عام ١٩٧٢، وعلى الدكتوراه في الأدب الإفريقي الأمريكي من جامعة ماساتشوستس عام ١٩٧٥. تُرجمت أعمالها إلى الإنجليزية والإسبانية والإيطالية والإندونيسية. نالت العديد من الجوائز منها: جائزة سلطان العويس للرواية والقصة (٢٠١٢)، وحصلت «ثلاثية غرناطة» على جائزة أحسن رواية من معرض القاهرة للكتاب (١٩٩٤)، والجائزة الأولى للمعرض الأول لكتاب المرأة العربية (١٩٩٥). ومن أعمالها الروائية: «سراج»، «ثلاثية غرناطة»، «أطياف»، «قطعة من أوروبا»، «فرج»، «الطنطورية»، و«أثقل من رضوى».



